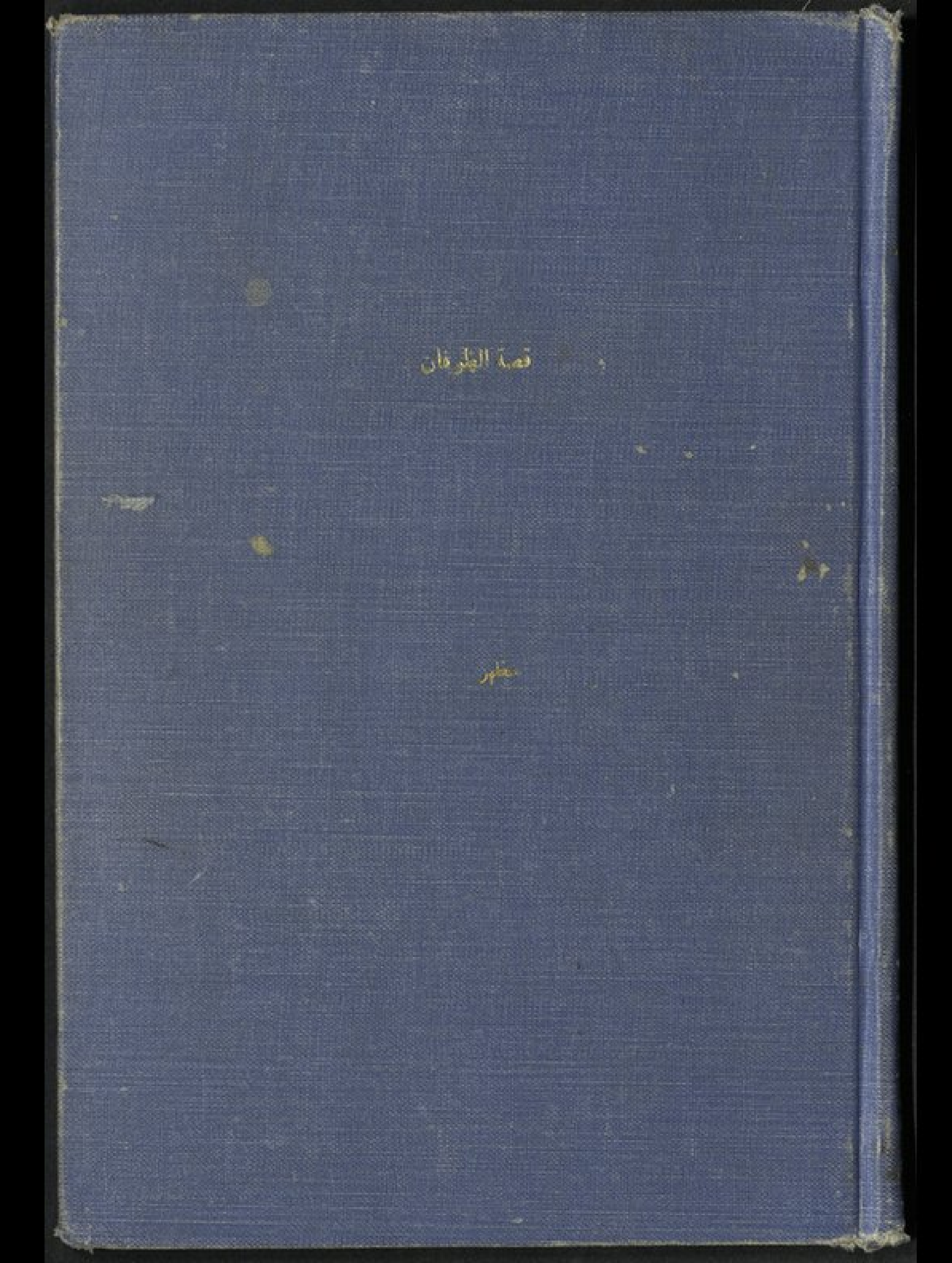
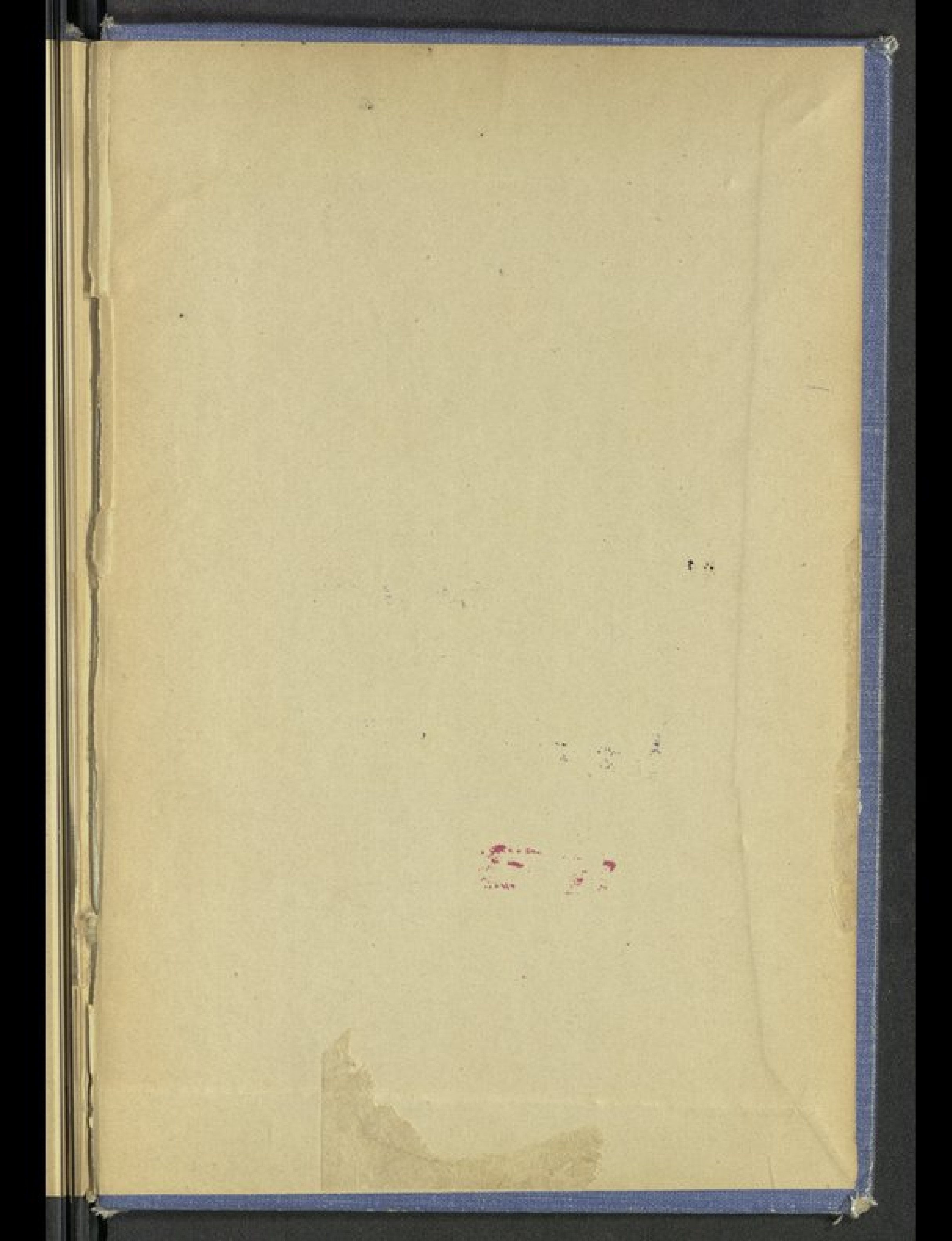
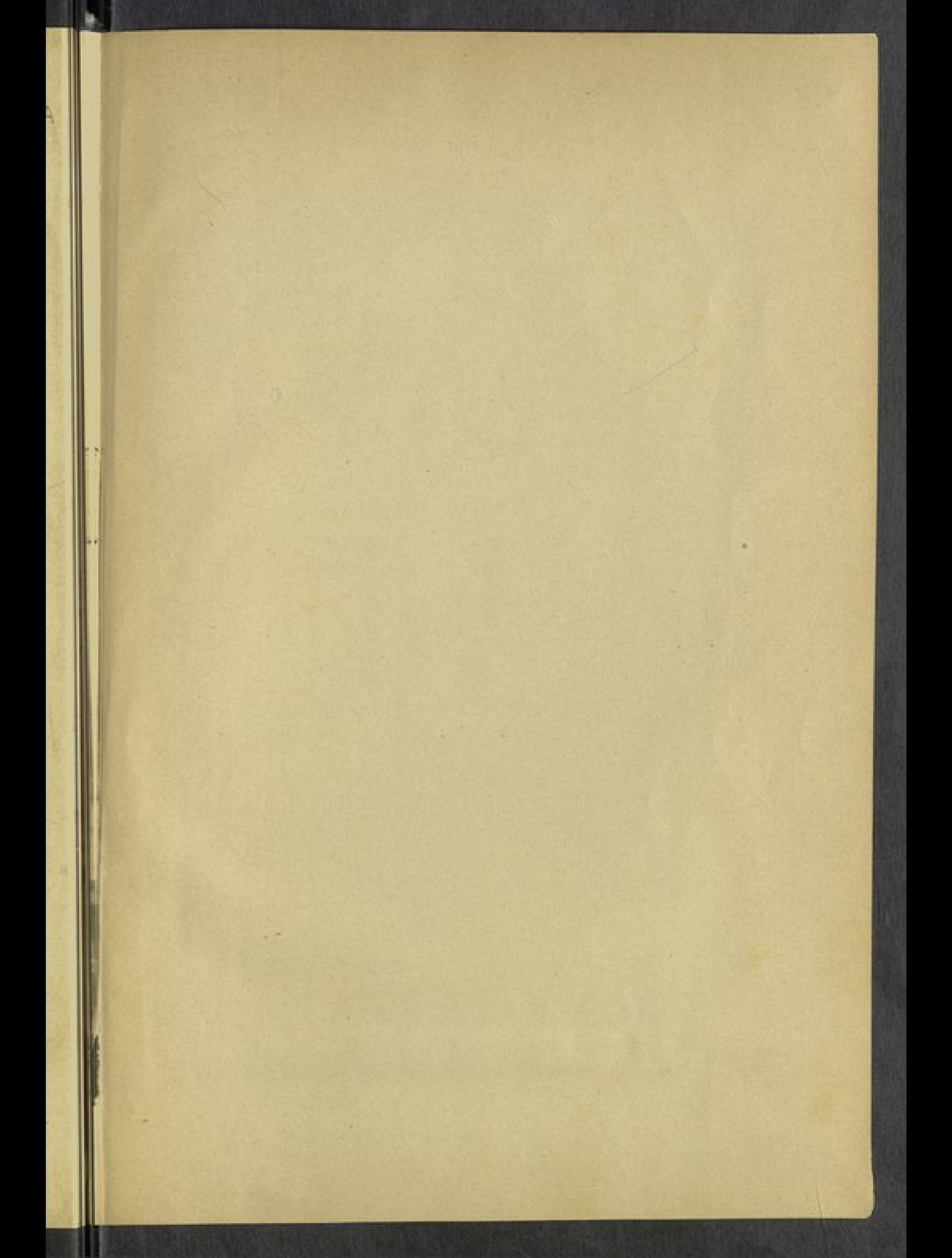

قصة الطوفان
مظهر





قصة الطوفان

وتطورها فى ثلاث مدنيات قديمة

هى الاشورية البالية والعبرانية والمسيحية

وانتقالها باللقاح إلى المدنية الاسلامية

بقلم

اسماعيل مظهر

صاحب مجلة العصور ومحررها

١٩٢٩

دار العصور للطبع والنشر : بشارع الخليج المصرى بالظاهر : بمصر



الاهداء

الى أحرار الفكر

أهدي هذا الكتاب

تصدير

اتى العلامة « ادورد كيرد » فى اول كتابه المعروف عن فلسفة « كانت » بجمل نقلها عن « كانت » نفسه تمهيداً للكلام فيه وفى فلسفته . لم نر بداً من ان ننقلها هنا تمهيداً للكلام فى موضوع هذا الكتاب : قال :

« يمكن أن نصف هذا العصر بانه عصر النقد . النقد الذى اضطر كل شئ الى الخضوع له . فالدين على عرش القداسة ، والقانون على عرش العظمة ، قد حاول كلاهما مرات أن يفلتا من الخضوع لهذه الضرورة . غير أنهما بما يحاولان فى هذا الشأن انما يقيمان فى الأذهان شكا فى ما يعضدهما من الاسس والقواعد ، كما انهما يعدمان بهذا ، كل ما يحبو العقل غيرهما به من الاشياء التى أثبتت قدرتها على الثبات أمام البحث الحر » .

وليس لنا أن نزيد حرفا على ما كتب « كانت » ، فان هذه الاسطر القليلة العدد الكبيرة المعنى كافية عندى لان تكون اكبر مبرر للنحو الذى انحوه فى هذا البحث .

غير انى ارى أن التعقيب على هذا بحث فى حدود المعرفة وتقسيمها والمبادئ التى اعتقد بصحتها فى هذا الشأن ، امر ضرورى . أقل ما فيه من الفائدة أن يتريث بعده الناقدون فى مذاهبهم ، وأن يصد بعض الذين يحاولون الذهاب بحرية الرأى فى مذاهب وعرة عن غايات اعتقد بان الوصول اليها خطر مكروه .

على أن « حدود المعرفة وتقسيمها » على مقتضى كفايات العقل الانسانى ، ان كان بحثها ضرورة الجأتنا اليها ظروف الاحوال ، فلا اقل من أن نصرح برأينا فى أن هذه الضرورة سوف تزول عما قريب ، وان الباحثين سوف يفسح امامهم مجال القول من غير احتياج الى تمهيد والى مقدمات ، اعتقد انها كثيراً ما أثرت فى لب الموضوعات تأثيراً صرفها عن القصد ، وذهبت بها فى مذاهب أبعدتها عن الغرض الأصلى الذى من أجله وضعت ، والذى من أجله اعنت فى سبيلها

الكاتبون قواهم وعقولهم . وأظن أنى بلغت بهذه الكلمات غرضا لم أجد الى التعبير بغيرها عنه سبيلا .

⁂

حدود المعرفة

وتقسيمها على مقتضى كفايات العقل الانسانى (١)

الكفايات التى هى أظهر من غيرها أثرا فى حياة الانسان العقلية ثلاث : والظاهر أن هذه الكفايات هى الكفايات الأساسية التى تقوم عليها المعرفة وهى :

أولا — كفاية الاعتقاد

ثانيا — كفاية التأمل

ثالثا — كفاية الاثبات

وعن هذه الكفايات الثلاث تنتج ثلاث صور من المعرفة . فعن كفاية الاعتقاد ينتج الدين : وعن كفاية التأمل تنتج الفلسفة : وعن كفاية الاثبات ينتج العلم . اذن فالدين والفلسفة والعلم ثلاثة اصطلاحات وضعت لتدل على ثلاث صور معينة من صور المعرفة الانسانية ، بحيث يفصل بينها فى الاعتبار العقلى حدود موضوعة : ولا تجتمع الا فى حيز واحد : اذ ترجع برمتها الى أنها نتاج للعقل الانسانى .

وما نعنى بالعقل الانسانى إلا ذلك الشىء الغامض المبهم الذى فيه من الفطرة ومن الكسب مزيج ينتج تكوينا نسميه العقل . وما دام العقل — كما سنرى بعد — أحد الاشياء التى نسلم بها ولو عجز العلم عن اثبات وجودها بأساليبه الموضوعة : اضطررنا الى القول بأن تعريف العقل وحده مستعص الى حد

---

(١) نشرت فى عصور فبراير سنة ١٩٢٩

بعيد . ولكن يكفى أن نعرف من العقل أنه المصدر المكون من فطرة وكسب والذى ينتج عنه مجموعة المعرفة الانسانية .

١ — كفاية الاعتقاد ونشوء الدين

فى الحياة الانسانية ظاهرة من الجائز أن تكون قد سبقت بالوجود أول مدارج الاجتماع . تلك ظاهرة الاعتقاد . فكما أن الانسان كائن اجتماعى بالطبع ؛ فهو كذلك كائن معتقد بالطبع : أى انه ذا عقيدة فى صحة شئ وبطلان آخر .

فالحاجة ، حاجة الانسان الى الاحتفاظ بكيانه وحياته : جرته الى الموازنة بين الحالات المحيطة به ، مقودا بفطرته ، مسوقا بمقتضى غريزته ، الى الاعتقاد بصحة عدد من الحقائق المرجحة التى تحف به ظاهراتها وتحوطه نتائجها .

عاش الانسان الهمجى عيشة الفطرى الساذج فى جوف الطبيعة يتلمس أوجه الحقيقة ليزيح عن عينيه وشاح الجهل والعماية التى جرته الى عبادة الأوثان والعناصر ، ومضى يتأمل نواحى الطبيعة ليقع على قبس من نور الحق يجلو به ظلمة الشك القاتل الذى يحوط بماضيه ويحف بمستقبله وينهك قواه فى حاضره ، فلم يجد سوى الوهم والتخيل يحبوهما الخوف من جهل بالمستقبل فراح يضرب مع أوهامه فى فلوات الفكر القصى ، يأخذ بيده الخيال وتنجده كلما زلت قدمه فى مزالق الوهم ، تصورات ما نزل بها من سلطان .

تلك حالات تطمئن اليها النفس ، ويسكن اليها العقل الفطرى ، ما دامت آتية من ناحية الفكر منتهية بالانسان الى صورة من صور الاعتقاد بصحة شئ ما ، مهما كان ذلك الشئ فى ذاته باطلا .

فالانسان اذن كائن معتقد بطبعه . وما كان للانسان ان يتبدل بمعتقده معتقداً آخر ، قبل ان تصح عنده مقدمات تسوق اليه ، وما كان له ان يثبت على معتقدين متناقضين أو متضادين تلقاء شئ بذاته ، فى زمان بذاته . ذلك لان للعقل الأنسانى طبيعة لاتسع الا اعتقاداً فى شئ بعينه فى زمان بعينه .

من هنا نقول بان الاعتقاد الفطرى فى الأنسان تكأة الدين، كما أن الخوف والجهل منشؤه. قال المؤرخ ليكى فى كتابه «تاريخ حرية الفكر فى أوروبا» ص ١٦ جزء اول طبعة ١٩١٣ ما يلى

«نجد فى حياة الانسان الفطرية الأولى ان الاعتقاد بالسحر كان عاماً. بل غالب ماظهر ذلك الاعتقاد مصحوبا بضروب شئ من القسوة الغاشمة. والسبب فى ذلك ظاهر. فان الفزع كان فى كل الحالات الباعث الأول على تصوير الاديان. لان الظاهرات التى كانت تبلغ من عقول المتوحشين ابعد مبلغ من التأثير، ليست هى الظاهرات التى تدخل فى حيز الاشياء الطبيعية من الاسباب الموصولة بالمسببات التى تقع تحت التجربة: أو تلك التى تنتج اكثر مظاهر الطبيعة عودا بالنفع والخير على الأنسان: بل هى الظاهرات المهدمة القاسية التى نرى على ظاهرها: كأنها خارجة عن النسق العام. والحب والعطف اقل فى الواقع من الخوف فى النفس أثرا. لذلك نرى أن اقل خروج فى الطبيعة على اوجه تجانسها الظاهر: مدعاة الى احداث انفعالات نفسية فى الأنسان امعن فى النيل من شعوره من ابعث مظاهر الطبيعة على الروعة الهادئة والاعجاب الساذج. فاذا وقع فى عقل الهمجى من آثار الطبيعة ابلغها فى الشدة والعنف: أو اذا اصابه من الامراض مهلكها: أو من اخطار الطبيعة ما يؤدى به الى العدم: فهنالك يستمد الهمجى من تلك الحوادث اسباباً يبنى عليها اعتقاده فى الشياطين والارواح الشريرة. ففى ظلام الليل الحالك أو فى حدوث العواصف الشديدة العاتية وترديد الوديان والجبال صدى تلك الرياح المتناوحة: أو فى ظهور مذنب عظيم يضئ الليل بوهجه وضيائه: أو فى حدوث خسوف او كسوف تظلم معه جوانب الطبيعة بعد اشراقها او فى وقوع قحط ذهب بالحرث ولا يبقى النسل: أو فى أى مرض يكون له تأثير ما على قوام العقلية السليمة: بل فى كل ما يسوق الى شر أو ينتج ضراً، مبعث فى نفس الهمجى على الشعور بشئ يتخيله مما وراء الطبيعة. وهو اذ يعيش معرضاً الى

قواسر الطبيعة وأعاصيرها ، جاهلا سلسلة الاسباب التى تصل بين أطرافها المشعبة ، يقضى الهمجى عيشه فى خوف مستمر ، متخيلا أن هالة من الارواح تحيط به ، وان جوا من الشر يأويه »

ذلك يدل على أن منبت الدين الاصلى اعتقاد فطرى ينزل منزلة الضرورات التى يرجع أصلها الى الغرائز ، جرت الى تشكيله حالات أحاطت بالانسان ؛ فاختلفت نظراته فى المعتقد الدينى باختلاف تلك الحالات .

٢ — كفاية التأمل و نشوء الفلسفة

اذا خرجنا من عالم الاعتقاد ولجنا عالم التأمل ؛ ويحسن بنا ان نبين هنا أن الانسان كما هو معتقد بالطبع واجتماعى بالطبع ، هوكذلك متأمل بالطبع ؛ ولن يكون تأمل بلا اعتقاد ؛ ولا فلسفة بلا تأمل .

يبدأ الانسان بالاعتقاد من غير أن يكون له اختيار فى أن يتأمل فى حقيقة ما يعتقد به . فاذا داخل الانسان الشك فى حقيقة شىء مما يعتقدبه بدأ يتأمل فى ما يقوم عليه اعتقاده من المقدمات وفيما يمكن انه يصح لدى العقل من النتائج التى تؤدى اليها هذه المقدمات . فاذا صح لديه من طريق ما ان الحقائق التى اعتقد بها بديا لا تلائم ما وصل به اليه التأمل ؛ أخذ من ثم يتلمس طريقاً يوفق به بين معتقده واستنتاجه ، أى بين دينه وفلسفته . غير أنه غالب ما يعز عليه أن يلغى الدين ، كما يعز عليه أن يلغى الفلسفة ، فيحاول من ثم المزج بينهما مزجاً أخرج لنا كل صور الدين العليا ؛ و كل مذاهب الفلسفة اللاهوتية التى قامت على مدى الازمان

٣ — كفاية الاثبات ونشوء العلم

من الاعتقاد ومن التأمل ممزوجين تتولد حالة ثالثة ، هى من حيث الأصل فطرية فى الانسان . على أن هذه الحالة لن تنشأ الا مع الشك ؛ فان الانسان اذا شك فى معتقده ثم شك فى استنتاجاته التأملية ، نزع ضرورة إلا الاثبات . فاذا

كملت لديه هذه النزعة الاثباتية، نشا مع كمالها الاسلوب العلمى فى أول مدارجه. فاذا تُدرج فى طريق الاثبات تُحيزت الطريقة العلمية الاثباتية على الاسلوب الحديث، فاصبحت عبارة عن وحى الحواس، تحديدا لها عن وحى المعتقد، ووحى التأمل.

وهنا يجب علينا أن نرجع الى الفلسفة الاثباتية **Positive Philosodhy** لنقول بأنما وضع أوغست كونت من القواعد فى تقسيمها يلائم تمام الملاءمة تقسيم المعارف الانسانية على حسب الكفايات العقلية فى الانسان. فان دراسة الادراك الانسانى من كل ناحياته تدلنا على وجود قانون ضرورى يخضع له العقل، تتبينه من أثره فى النظام الاجتماعى والتجاريب التاريخية الثابتة

ان كل فكراتنا الاولية ومدركاتنا وكل فرع من فروع معرفتنا، لا بد من أن يمر بالتوالى على ثلاث حالات مختلفة. الاولى اللاهوتية وهى التصورية التخيلية: والثانية المتافيزيقية الغيبية: وهى التأملية المجردة: والثالثة الاثباتية - أو تجاوزاً - اليقينية الواقعة. هذا هو الاساس الذى تقوم عليه الفلسفة الاثباتية أى فلسفة «كونت» الحديثة وعليها يقوم التقسيم الاخير الذى اعتمد عليه الباحثون فى تمييز العلوم بمقتضى الكفايات العقلية فى الانسان. أما الحالة الاثباتية فهى التى ينشأ فيها العلم الصحيح.

إن من أخص ما نحتاج اليه فى تحديد معنى العلم أن نظهر الفرق بين نزعة العلم ونزعة الدين أى الفرق بين ما تنتج نزعة الاعتقاد ونزعة الاثبات فى الانسان من المظاهر.

أما الدين فنزعته ذاتية - **Subjective** - محدودة فى انها تنسب او تحاول أن تنسب قيمة ذاتية خاصة لحادثات الحياة وظواهرها، وهى فى أهم وجوهها عبارة عن معرفة الوجود بشكل عام مطلق مستمد من الرغبات والضرورات الراجعة الى الشعور أو القلب الكامن، والى روح الانسان اذ ترد الى النظر فى

حياتها الداخلية أكثر من نظرها فى عالم الطبيعة الخارجى . أما نزعة العلم فيفخر العلماء بانها غير ذاتية بل موضوعية عامة - **Objective** -

يصل الدين الى العالم الخارجى المنظور مزوداً بمطالب يحاول من طريقها أن يخلق جواً ملائما لمجموعة من الرغبات والانفعالات الخاصة . أما العلم فيظهر خلوا من كل شئ ولا يصل إلى العالم الا ليعرف الكون من طريق النظر الحسى فى طبيعته .

يترك العلم الطبيعة حرة فى أن تلقي فى روع كل انسان سرها ورواينها بلغتها الخفية وبلاغتها الحقة . أما الدين فلا يرضى للطبيعة أن تتكلم بلغتها . فيضع لها لغة ، وينتحى لها أسلوبا من البلاغة مخالفاً لبلاغتها . ثم يرجع فى كل الظواهر الى استيفاء أغراضه الأولية ، لا الى الترجمة عن حقائق الكون كما تريد الطبيعة أن تلقيها فى روعنا .

هذه هى الحدود الموضوعة للكفايات العقلية الثلاث وما ينتج عنها من صور المعرفة . فلنحاول من ثم تحديد العلاقة الواقعة بينها .

٥ — العلاقة بين الدين والفلسفة والعلم (١)

لقد حدد الاستاذ « تيودور مرتز » هذه العلاقة تحديدا قويماً ؛ لهذا نعتمد عليه فى شرحها وبيانها ـ قال

«هنالك أشياء كثيرة تقوم فى عقلية كل فرد من الافراد : شخصية فى طبيعتها ذاتية فى مبعثها. ولهذه الأشياء فى أنفسنا من الشأن والخطر ما لغيرها من مطالب الحياة وحاجاتها، ومن هذه الاشياء تتكون المادة الحقيقية التى يتركب منها الفكر الخارج عن ميدان العلم. وهى فى جوهرها ومظهرها مناظرة للعلم الاثباتى أى أنهما طرفى تناظر . وفى هذا الشطر من الفكر لا يستطيع شخص بذاته ان

(١) سمى البعض هذه الفلسفة بالوضعية خطأ وسميتها فى بعض ما كتبت باليقينية ، ولكنى الآن أفضل اصطلاح الفلسفة الاثباتية على اصطلاحى الاول.لان اليقين ولو أنه يؤدى المعنى الأصلى تماما،الا أنه قد يختلط لدى البعض بأنه التسليم اليقينى الذى يجرى عليه أهل الدين .

يقوم بعمل ينتفع به الكثير ون على نفس الطريقة التى نحتذى فى العلم. فالاخذ بالبرهان فى ذلك الشطر من الفكر مستحيل والاجماع على شىء فيه لا يضم تحت لوائه الا عددا قليلا من الناس . وذلك هو الدين . »

«أما الصفة التى تلازم ذلك الشطر من الفكر فكونه فرديا ذاتياً . فى حين أن العلم مهما كانت صبغته ومهما كان أصله عاما موضوعيا : أى غير ذاتى . يرجع الى الموضوع لا الى الذات التى تفكر فى الموضوع وتفحص عنه . فاذ مثلت الفكر بشىء ذى طرفين متناظرين الفيت أن العلم الرياضى فى أحد طرفى الفكر . وان الدين فى الطرف الاخر . ونجد أن التجانس والاتفاق فى الطرف الاول صفة ملازمة كالاختلاف فى الطرف الثانى . تلحظ أن وحدة الفكر صفة ثابتة فى الطرف الاول ، فى حين أنك لن تقع لها على ظل فى الطرف الثانى . ان وحدة الفكر لم تعرف فى الدين ولن تعرف »

«فيما بين هذين الطرفين تقع على مسافة كبيرة من الخلف تصل بينهما . ان هذه المسافة يغشاها من الفكر صورة تصل بين الطرفين فتبرز حينا فى هيكل من المعرفة وآخر فى مثال من الايمان ؛ فيختلط فيها قليل من الاشياء المحققة بكثير من الايمان والاعتقاد المبهم. تلك المسافة الكبيرة ؛ وهذه المفازة المترامية الاطراف : والتى تتوارد عليها صور التغاير والاختلاف سريعة متعاقبة : هى سكن الفلسفة الحقيقي ، ومنبتها الاصلى .الفلسفة التى تتناول الحقائق ولا تأنف من الايمان . الفلسفة أصل المعرفة ومنبع المعتقدات واليقين . الفلسفة حلقة الوصل بين الطرفين المتناظرين . طرف العلم الاثباتى ، وطرف الدين .

٦ — استعمال اصطلاح « العلم » استعمالا مجازيا

بعد أن قطعنا هذا الشوط من البحث يجب علينا أن نبين أن اصطلاح العلم كثيراً ما يستعمل مجازياً فيدل على المعرفة . فان الغالب عند كل من يحاول أن يعرف شيئاً من حقائق الكون أو قضايا المنطق الجدلية أو القياس أو أصول

الدين أو التشريع أو النفس أو الأدب أن يسمى هذا « علما » . والكل معذور في أن يستعمل هذا الاصطلاح فى هذا المعنى المجازى الواسع . لأن كل ما وصل الينا من مذاهب الفلسفة أو مبادىء العلوم أو أصول الشرائع من العالم القديم سمى علما . ذلك لان تقسيم المعرفة على مقتضى كفايات العقل الانسانى وليد العصور الحديثة . ولهذا نجد من أصعب الاشياء أن تناقش شخصاً لم تتحيز فى عقليته الفروق الموضوعة بين أقسام المعرفة على مقتضى الكفايات التى تستمد منها فى تكوين العقل . ذلك لانه يعتقد أن الدين علم ، وان الفلسفة علم ، وان العلم علم . فى حين أن الاصطلاح الجامع لهذه الصور الثلاث هو « المعرفة » . فالدين معرفة والفلسفة معرفة والعلم معرفة ، ومن مجموعها تتكون المعارف الانسانية . ولاجرم أننا من غير أن نميز بين الفروق الموضوعة بين هذه الصور ، نضرب فى ليل من الفوضى حالك السواد . لهذا نحدد صور المعرفة بما يأتى :

١ — الدين **Religion** — اعتقاد **Belief** — ذاتى **Subjective**

٢ — الفلسفة **Philosophy** — تأمل **Meditation** — لا ذاتى صرف ولا موضوعى صرف **Neither Purely subjective nor purely Objective.** أو استنتاج **Deduction**

٣ — العلم **Science** — اثبات استقرائى تام **Perfect induction** - موضوعى **objective** . وبين هذه الصور الثلاث يجمع اصطلاح واحد هو .

٤ المعرفة **Knowledge**

على هذا نجد أن العلم محدود تحديداً تاماً بسيطاً وكذلك الدين . فاذا لم نراع هذه الحدود ، واذا لم نراع الدقة فى استعمال هذه المصطلحات ، لم نستطع أن نحدد التفكير ، وبذلك تختلط علينا المقاصد فى العلم و الفلسفة و الدين ، بل نعجز عن أن نحدد الاغراض التى ترمى اليها و نبالغ فى تقسيم الحاجات الفكرية و المادية ، مبالغة قد تصل الى حد الافراط حينا أو التقصير حينا آخر ، بل لا نخطىء اذا قلنا

إن كل المناقشات التى تقوم حول المباحث العقلية ، تصبح خليطا من صور الفكر ، لن تؤدى الى نتيجة ولن نصل معها الى غاية . وبذلك نفسح المجال للجدل المنطقي الذى ذاعت مع ذيوعه مذاهب السفسطة فى العصر اليونانى .

***

لا جرم أن بحثنا هذا يظل ناقصاً اذا لم نظهر الباحث على اشياء عديدة يشتبك فيها العلم مع الفلسفة اشتباكا كبيرا . وعلى هذا نبدأ بالكلام فى « الفرض » وليس غرضنا أن نحدد ما هو « الفرض » في المنطق أو ما هو « الفرض » فى الفلسفة القديمة ، بل نقسم الفرض الى قسمين : أولهما الفرض الضرورى : وثانيهما الفرض الامكانى : ثم نمضى فى بيان الفرض الضرورى لنستطيع بذلك أن نميزه عن الفرض الامكانى . أما الفرض الضرورى فهو مايقبله العلم على ماحددناه من قبل ؛ وأما الفرض الامكانى فلا مكان له إلا فى عالمى الفلسفة والدين :

٧ — تعريف الفرض الضرورى

« الفرض الضرورى هو عبارة عن الحكم الذى يقسر العقل على التسليم به بمقتضى ما فى العقل من ألفة لانه لا يمكن الاحتفاظ به الا من طريق التسليم بذلك الفرض . فى حين أن « العلم » **Science** يضطر إلى التسليم مع العقل بصحة ذلك الفرض ولو أنه يعجز عن اثباته بالطرق العلمية الموضوعة » .

٨ — تعريف الفرض الأمكانى

« هو الفرض الذى يستوى فيه حدا الوجود والعدم : أو الذى يحتمل أن يكون له حقيقة موجودة : كما يحتمل ان لا يكون له أية حقيقة فى الخارج . ومعنى هذا أن العقل اذا سلم بالفرض الامكانى أم لم يسلم : فانه يظل محتفظاً بالفته كاملة ، فى حين أن العلم يرفض التسليم بالفروض الامكانية رفضاً باتاً تاماً : ما لم تثبت صحتها ثبوتاً قاطعاً بالاساليب العلمية المعروفة » .

٩ — شرح المذهب فى الفرض الضرورى

الطريقة العلمية تقوم على وحى الحواس، ولذلك يقول الباحثون فى الأسلوب العلمى «كل ما لا تثبته الحواس لا يمكن أن يكون صحيحاً»، بهذا قال سبنسر وجاراه فى ذلك الكثيرون، على أن الحواس التى يفقد الانسان بفقدانها كل ذاتية عقلية فيه، ناقصة، لا تؤدى الينا من الادراك إلا مايقوم مقام الفرض الصرف فى كثير من الحالات. ولقدعدد فلاسفة العلماء حقائق كثيرة نحن مجبورون على الاعتقاد بصحتها، فى حين أن العلم يعجز عن معرفتها واثبات وجودها بطرقه الموضوعة، واليك مثال من ذلك:

(ا) وجود عالم خارج عن حيزنا

خذ مثلا التكأة التى تكتب عليها، كيف تعرف أنها خارجة عن حيزك وبالأحرى كيف يمكن أن تثبت عليا انها خارجة عن حيزك؟ انك اذا نظرت اليها أو لمستها او وقعت تحت حسك بحال من الأحوال؛ فكل ما فى مستطاعتك أن تعرف منها ليس سوى مدركات حواس كائنة فيك؛ وليست خارجة عن حيزك. لا فى لونها وصورتها فحسب، بل أيضا فى صلابتها وقوتها؛ والدليل على هذا أن فقد أعصاب البصر يمنع عينك أن تراها. وان فقد أعصاب اللمس يمنع عينك أن تحس بها. وان فقد الحواس جميعها يمنع عينك أن تدرك أنها موجودة البتة. ذلك فى حين انه وان لم يكن فى مستطاعك ان تعرف من وجود تلك التكأة عليا إلا احساسات كائنة فى حيزك، إلا أن تركيب عقلك قد وضع على نظام يحملك على أن تعتقد بأنها كائنة فى حيز خارج عنك. فاذا اعتقدت بما يخالف ذلك؛ وأخذت تؤدى عملك بما يوحى إليه به اعتقادك هذا؛ كان ذلك دليلا على أن ميزان العقل قد اختل وتفككت الفته.
هذا فرض ضرورى يسلم به العقل قسراً عنه؛ ويسلم به العلم وان عجز عن اثبات وجود التكأة فى عالم خارج عن حيز الانسان بأساليبه الموضوعة.

(ب) — فى أن وجود المادة يتوقف على وجود قوتى الجذب والدفع.

أما أن قوتى الجذب والدفع حقيقتان طبيعيتان؛ فذلك ما لا سبيل إلى إدحاضه او التشكك فيه . فاننا اذا أخذنا جسما صلباً وأردنا أن نفصل بعض أجزائه عن بعض ،فانه يقاوم مجهودنا . وكذلك هو يقاومنا اذا أردنا أن نضغط بعض اجزائه ، مثبتا بذلك انه انما يتركب من دقائق تتجاذب وتتدافع فى آن واحد. والى هذه الحقيقة تعود ظاهرة التفاعل وعدم التفاعل فى العلم الطبيعى ؛ بل وفى أجزاء الطبيعة برمتها . ومع كل هذا فان هذه الحقيقة تعدو الادراك العلمى فى تعليل كيف ان دقيقة واحدة تجذب أخرى فى حين انها تدفعها وتقاومها. وفى ذلك يقول سبنسر اننا لا نستطيع أن نأتى بقطعة من المادة يظهر فيها ان جزءا يجذب آخر فى حين أنه يدفعه. ومع هذا فان الاعتقاد بذلك الزامى ضرورى

اذن فالتسليم بوجود قوتى الجذب والدفع فرض ضرورى، العقل مقسور على التسليم به ؛ وفى ذلك يجاريه العلم كرها ، ولو انه يعجز عن اثبات وجود هاتين القوتين بطرقه المعروفة .

(ج) — فى بقاء القوة

أى فى حقيقة أن كمية القوة الموجودة فى الكون ثابتة لا تزيد ولا تنقص. يقول العلامة « سبنسر » ان هذا الاعتقاد أساس كل العلوم الحديثة . وانه النبع الفائض الذى نستمد منه العلم بكل النواميس الطبيعية . يقول : ان كل النواميس الطبيعية الأخر ليست سوى توابع تعود إلى هذه الحقيقة العظمى . وكل الاستقراء العلمى « يفرض » ان القوة ثابتة . لانها اذا لم تكن كذلك أصبحت أدوات قياس الأبعاد التى هى فى ذاتها عبارة عن قياس القوة الجاذبة ، وكل أدواتنا الاخرى التى نحقق بها استنتاجاتنا العلمية تتغاير بين يوم وآخر ،أو بين ساعة وأخرى . وبذلك تصبح كل المعارف الطبيعية غير ممكنة . لذلك كان مبدأ بقاء القوة — ولو لم نستطع أن نثبته علمياً — اعتقادا الزاميا ضروريا . والعلامة سبنسر

يعتقد أن هذا « الفرض » وان كان أساس العلم الطبيعى ، إلا أن « العلم » يعجز عن ادراكه واثبات وجوده بطرقه المعروفة التى تعتمد على الحواس . وهذا مثال حق يثبت قاعدة أن كثيرا مما لا يمكن أن يدركه العلم الطبيعى ، يجب أن يعتقد بوجوده . اذ لولا هذا الامر لتحلل ذلك الهيكل النظامى الذى ترتكز عليه معرفتنا .

هذه أمثال ثلاثة . وفى مستطاعنا أن نأتى بأمثال أخرى . فالعقل ووجوده فى ذوات غير ذواتنا لا يمكن اثباته بالطرق العلمية ، وكذلك الأثير والاعتقاد بتفوق العقل على المادة ، والشجاعة على حب الملاذ . والاعتقاد بوجود السببية العلمية . كل هذه الاشياء تقسر على الاعتقاد بوجودها عقلا باعتبارها فروضا ضرورية فى حين أن العلم يجارى العقل فيها ولا ينكرها عليه ، بل هو مضطر إلى اتخاذها قاعدة يبنى عليها ولو أنه يعجز عن اثبات وجودها بالاسلوب العلمى

هذا هو الفرض الضرورى . فلنحاول من ثم فى تطبيقه على بعض الاشياء التى تقوم عليها معرفتنا لنعرف الفرق بينه وبين الفرض الامكانى ، ولنجعل الفكرة فى وجود الله محورا يدور من حوله البحث .

١٠ — الاعتقاد بوجود الله فرض ضرورى

يعتقد كثير من أصحاب العقول الراجحة فى هذا الزمان أنه ليس فى الفلسفة من شئ هو أبعد عن ألفة العقل من تلك الفكرة التى يطلق عليها اصطلاح « الناسوتية » — انثروبومورفزم — **Anthropomorphism** أى الفكرة القائلة بتزويد الله بشئ من الخصائص الانسانية . على أن الاعتقاد بأن الخالق مكون على حسب نماذجنا العقلية ، أو أنه صورة من صور الفكر الانسانى ، هو الاعتقاد فيه من الباطل بقدر ما فى القول بأن الارض مركز النظام الشمسى ، وان الانسان محور العالم . وعلى الرغم مما فى هذا النقد من الصحة ومطابقة الواقع ، فان محاولة الاعتقاد بأن علة الكون من الممكن إدراكها بما يبعد عن

ادراك ذواتنا ، أمر بعيد عن الامكان بحكم الطبيعة ، بل قول هراء لا أثر له من الحقيقة .

خذ لذلك مثلا « اسبينوزا » فانه أبعد الفلاسفة عن الاعتقاد بأن الخالق مكون على نموذج عقله ، وقد مضى فى فلسفته متخيلا أنه اجتاز هذه العقبة الكؤود ، بأن جعل الخالق عبارة عن « امتداد وفكر » ، غير أن دكتور « مارتينو » قد نقض هذه الفكرة متسائلا :

« من أين أتى لاسبينوزا فكرة « الامتداد » الا من النظر فى حالات جسمه الطبيعية ، ومن أين أتى له أن الله « فكر » إلا من النظر فى حالات عقله؟ » — ذلك لان الامتداد والفكر ليسا سوى شيئين هما اخص ما تتصف به الاجسام والعقول

وكذلك سبنسر . فانك — إن نظرت في فكرته في الله — لم تجد أنه تخطى الحد الذى وصله « سينوزا » فكما أن الخالق عند سينوزا لم يكن إلا شبحاً إنسانياً اتمثله حالا في مكان — امتداد وفكر — كذلك كان الخالق عند سبنسر عبارة عن تمثل صرف لفكرة غير معينة هى فكرة « القوة » وهى فكرة مستمدة من أحط الخصائص الانسانية ، خاصية إدراك الحس ، إذ قال بأن الخالق « قوة خفية » تدبر الكون .

وأنت مهما قلبت وجوه الرأى وأنعمت النظر فانك تجد دائماً أن فكرة القوة كما ثبت من قبل ، مستمدة من قسم من ذاتيتنا ، أى من ادراك الحس . إذن نجد أن سبنسر بدلا من أن يجعل الخالق بعيداً جهد البعد عن الذاتية البشرية كما كان يعتقد . إذ انه يتمثله على نموذج مستمد من أحط خصائص الانسان . على أنه بعد أن حمل على « الناسوتية » لأنها تزود الله بأرقى الخصائص الانسانية ، مستقلا ذلك فى جانب الله ، رجع فزلت قدمه فيما زلت فيه قدم غيره من الفلاسفة ، فزود الخالق بخصائص مستمدة من أحط الصفات التى يشارك فيها الانسان أدنى الحيوانات بدلا من أن يتركه مزوداً بأرقى الخصائص الانسانية .

ومن الجلى بعدهذا أننا في كل المباحث التى تتعلق بالنظر فى أصل الاشياء، لايجب مطلقاً أن نتسا ل عما إذا كنا نصو ر « علة الكون » على نسق مستمد من ذاتيتنا . لان تصور العلة على نسق الذاتية البشرية أمر لايمكن أن تنصرف عنه ذات انسانية فانية . بل الواجب أن نتساول دائماً عما إذا كنا نصورها على نسق مستمد من نظريات سطحية ؛ أم نصورها على نموذج مرجعه الوسعة فى النظر ؛ و الألفة التامة الموافقة لنظام العقل الانسانى .

أما و قد أظهرنا أننا لانستطيع أن ندرك من علة الكون إلا نموذجا يرجع تصويره إلى تجاربنا الذاتية ، فانه يكون من الجلى أن اعتقادنا فى وجود إرادة عاقلة أي علة خالقة ، أو عدم اعتقادنا ، يرجع إلى ماندرك من فكرة السببية. و مادام فهمنا للسببية عائداً إلى ما ندرك منها حسب تجاربنا العلمية ، أى أنها تنحصر فى القياس على السوابق الطبيعية الظاهرة أجلى ظهور ، فمن الواضح أننا لانرضى فى عقليتنا فكرة التسلسل السببى إلا بالاعتقاد فى أن الأشياء لا بد من أن تكون قد نشأ بعضها عن بعض متدرجة فى سلسلة منظومة خلال « الزمان » وهذا أمر يلزمنا إلزام « الفرض الضروري » بوجود إرادة عاقلة مخبوءة وراء عالم الظواهر الطبيعية : ظلت مؤثرة في الماضى والحاضر ، وستظل كذلك فى المستقبل .

غير اننا إذا اعتقدنا بأن السببية الحقيقية تشمل فى مدلولها فكرة « الارادة » فمن الظاهر اننا إذا أردنا أن نحتفظ بألفة العقل البشري ، تلك الألفة الصحيحة التى لا يمكن أن نتخذ غيرها دعامة للبحث وراء الحقيقة : ، فمن المحتوم علينا أن نعتقد فى إرادة عاقلة حرة نتخذها علة للأشياء ؛ أو بعبارة أخرى ، أن نعتقد فى خالق . وعلى ذلك نلزم القول بأنه كما يكون رأينا فى السببية . كذلك يكون معتقدنا فى الدين .

أما إذا أردنا أن نصل إلى نتيجة جلية واضحة فى بحثنا هذا، فيجب أن نظهر أولا أن العلة الوحيدة التى فى مستطاعتنا أن نتناولها بمعرفة يقينية وبحث اختبارى هى ارادتنا الذاتية، وقدرتها على تحريك أعضاء الجسم؛ والأجسام التى تقع تحت سلطانها. وما فعل الارادة الانسانية فى الواقع إلا الانتقال من حركة عقلية إلى فعل طبيعى. أي الانتقال من العقل إلى المادة. وما دامت معرفتنا للسببية من طريق الاختبار مقصورة على ذلك، فمن الظاهر الجلى إذن؛ اننا إذا تركنا وبداهتنا الفطرية لزمنا أن نعود بالكون، كما فعلت كل الأديان؛ إلى فعل عقل عظيم نعرفه باسم بارىء الأشياء. فاذا ما فعلنا ذلك نكون قد حفظنا على العقل البشرى تلك الألفة التى يتطلبها الاعتقاد الصحيح.

***

ان هذه النتيجة؛ على مافيهامن السذاجة وقربها من أحكام العقل الأولية لايتركهاالعلم من غير أن يتحداها بسلطانه. يتدخل العلم فى هذه النتيجة ويهمس فى الضمائر والعقول بأن تلك الحركة العقلية التى نسميها الارادة ليست إذا ما بحثت من أساسها سببية حقيقية؛ ولا تزيد عن كونها ظاهرة عقلية أو عرضاً من أعراض سببية حقيقية. وما تلك السببية الحقيقية لدى العلم إلا تلك الاهتزازات التي تتناول نشاط دقائق المخ ومراكز الحس العصبية. وعلى ذلك يكون مضمون السببية الصحيحة عند العلم ليس الانتقال من الحركة العقلية إلى الفعل الطبيعى بل الانتقال من سابقة طبيعية إلى لاحقة طبيعية. أى من مقدمة طبيعية إلى نتيجة طبيعية. ولا تتعدى مطلقاً حكم السنن التى تتصرف فيها وتنتجها.

يقول العلم إن الحركة العقلية التى ندعوها الارادة ليست سوى عرضاً يلازم اهتزازات دقائق المخ المادية وليس لها من أثر فى احداث الأفعال أكثر من أى عرض آخر.

فاذا كانت نظريتنا فى الكون : ليست سوى استعراض صرف للنظريات التى تخلقها عقولنا ، وإذا كان تكوين عقولنا يدل على أن الارادة ليست السببية الحقيقية وانها ليست إلا عرضاً من أعراض السببية الحقيقية فظاهر أن الاعتقاد فى عقل مدبر أو إرادة ترد إليها العلة فى وجود الكون . يتحطم على صخور العقل البشرى و يتفرق بددا وتحل محله عندنا تلك النظرة المادية الضيقة التى تسوقنا إلى القول بأنه ليس فى العالم إلا سلاسل من السوابق الطبيعية و نتائج متلاحقة تتبع إحداها الأخرى على تتالى الأحقاب وخلال تواتر الزمان ؛ كما كانت ، وكما هى كائنة ، وكما ستكون .

على اننا إذا أردنا أن نرد على القائلين بالسببية العلية وكفايتها لتعليل كل مافى الكون والحياة؛ فليس من قصدنا أن ندفع براهينهم برهاناً ببرهان . ولكن قصدنا ينحصر في أن نظهر أنهم إنما ينظرون فى العالم من بين أقدامهم نظرة ضيقة؛ يتبدلون معها من ألفة العقل والحقيقة التى فى مستطاع العقل أن يدركها؛ بعماء صرف لا نظير له من شىء فى هذا الوجود إلا عماء المادة الجامدة .

***

ينصرف الناس فى كل ما يتناولونه بالكلام و البحث وهم على شعور تام بأن كل واحد منهم إنما يملك شيئاً يقال له القوة المدركة . وأن لهم شيئاً يقال له حس الجمال والموسيقي وما إليهما من الخصائص كما أنهم يملكون ذلك الشىء المبهم الذي يسمونه الارادة . فاذا سقت ابحاثك مقتنعاً بأن الارادة ليس لها من وجود حقيقي : وانها ليست سوى عرض من أعراض اهتزازات دقائق المخ ، لم يبق أمامك من شىء آخر إلا أن تنكر مع انكارك الارادة كل وجود حقيقي لكل الخصائص العقلية التى للانسان . وعلى نفس الحجج التى يستند إليها الماديون فى انكار الارادة ، نستطيع أن نستند فى انكار كل القوي المدركة و الملكات الأخري .

نستطيع أن نقول مثلا بأن القوي المدركة برمتها انما هي عرض لاهتزازات دقائق ما فى مادة المخ. وبذلك لا يكون لها وجود حقيقي البتة. وكذلك الحال إذا نظرت فى الجمال. يمكنك أن تعتبره كمجرد وهم أو خيال، وليس بحقيقة ثابتة خالدة. تستطيع أن تقول ان الجمال عبارة عن مجرد تنسيق للمادة في صور معينة لا يلبث أن يزول أثره إذا نظرت فيه من عدسة المجهر. وهكذا الموسيقى. فى قدرتك أن تدعى أنها عبارة عن مجرد اهتزازات مادية. وليس لها وجود حقيقي. وكذلك إذا نظرت من تلك الناحية فى حب العظمة والشجاعة والفضيلة والشرف ومضاداتها من حب الذات والملاذ والسقوط الأدبى فانه في مستطاعك أن تعتبرها حركات خلايا خاصة توجه توجيهاً معيناً: لا أقل من هذا ولا أكثر.

فاذا عمدت إلى النظر فى العالم كما ينظر فيه الماديون مولياً بوجهك عن خصائص الانسان العقلية وأكببت على تقديس ماترتكز عليه هذه الخصائص من القوى والمواد الطبيعية وحدها: فانك لا تقتل بذلك الارادة وحدها كوجود حقيقي، بل انك تقضى على الشعر والموسيقي والحقيقة وعلى كل المراتب والفروق الكائنة فى العقل بين منازل الفكر والعواطف.

وعلى الجملة تقضى على كل قضايا العقل الانسانى. ولا تترك فى الكون من شيء إلا كتلة مواتاً وصحراء مجدبة من المادة والحركة. ولما كانت المادة والحركة لا يمكن ادراكهما إلا من طريق الحواس، ففي مستطاعك أيضاً أن تنكرهما. إذ لا يكون لديك من سبب يحملك على أن تعتقد أن العالم مكون على النموذج الذي توحى اليك به الحواس.

الى هذا الحد من التهوش والفوضى يكون النظام العالمى فى نظرك إذا تطلعت فيه من هذه الوجهة المادية الصرفة. ومن الظاهر الجلى اننا اذا أردنا أن نرد على العالم نظامه وألفته على مقتضى ما فى العقل الانسانى من نظام وألفة فان من الواجب أن لا تنظر فيما يمكن أن يثبت أو ينفي نظرياً، بل تنظر فيما يمكن الاعتقاد

به عملياً . هذا مع علمنا بان هـذه الألفة سواء أكانت مبنية على وجهة النظر المـادية أم وجهة النظر الروحية ، فانها أقصى ما يمكن أن نبلغ من صلة بالحق فى هذه الحياة .

والمثال : انى مضطر لان أعتقد بوجود عالم خارج عن حيزى لأتخذ اعتقادى هذا دعامة حقة وأساساً ركيزاً فى سبيل بحثى عن الحقيقة . ذلك على الرغم من أن الفلاسفة قد ينكرون أن للعالم الخارجى وجوداً حقيقياً فى ذاته. كذلك أعتقد أن هنالك فرقاً قائماً بين الفضيلة والرذيلة . وبين سمو المدارك الروحية والشهوات . وبين الانانية والتضحية .وبين الذاتية والغيرية . ولو أن الماديين إذ يرجعون بهذه المعانى بلا تفريق بينها الى اهتزازات دقائق غير مختلفة أي اختلاف إنما يلزمون أنفسهم الحجة بحكم العقل : بأنهذه المعانى لايختلف بعضها عن بعض اختلافاً حقيقياً .

أرانى اعتقد بوجود حقيقي للذكاء والادراك والجمال والموسيقي والشعر والحقيقة ،ولو أن هذه أيضاً يمكن ردها الى مجرد حركة بعض خلايا لا ادراك ولا ذكاء فيها والى قوات لاتعدو تلك الخلايا ادراكا ولا تبز هامعرفة وذكاء .

وعلى هذا النحو أرانى مضطراً الى الاعتقاد بوجود حقيقي لما نسميه « الارادة » ولو أن الماديين قانعون بأنها ليست سوي عرضاً يصاحب حركة الدقائق فى المراكز العصبية .

فاذا كانت ألفة العقل البشري تتطلب سبباً للعالم المرئى واذا كل مافى مستطاع اختبارى أن يصل من علم بالسبب الأول ينحصر فى الفعل العقلى للارادة التى أشعر وأحس بهـا : فمن الواضح الجلى انى مقسور بضرورة ألفة عقلى ومقتضياته على الاعتقاد بأن هـذا الكون العظيم معلول لارادة عاقلة أى الى خالق . وليس من معنى ذلك انى أعرف أو أعلم أن للخالق وجوداً حقيقياً ، أكثر مما أعلم أو أعرف أن للعالم الخارجى المحيط بى وجوداً حقيقياً . انما كل

ما أعلم أو أعرف اني جبلت على أنى لا أستطيع أن أرد على عقلى ألفته وأحتفظ بنظامه، الا اذا اعتقدت بوجود خالق ذي ارادة حرة عاقلة . والا فان كل معتقداتى الثابتة تنهار وتتحطم ويطمو على سيل الحيرة والفوضى .

ولست أجد من ضرورة تقضى على بأن أظهر كيف أن عقلا أو ارادة تكون علة للعالم ؛ كما أنى لست أعلم كيف أن دقيقة من المادة تجذب أخري فى حين أنها تدفعها . ومع ذلك فانى مقسور على الاعتقاد بسببية الجذب والدفع؛ كما أنه ليس فى مستطاعى أن أعرف كيف يتحد العقل مع مادة المخ ومع نشاط دقائقه وحركتها. وليس لذلك من علاقة لاتصال العلة بمعلولها أو السبب بالمسبب بالمعنى العلمى . لأن ذلك يتطلب الموازنة بين الاصطلاحين: ولا يمكن أن نضع موازنة بين ذلك الشيء الغامض المبهم الذي نسميه العقل : وبين القوة ومادة المخ مثلا . ويكفي لدي أنني يجب أن أعتقد بحقيقة العلاقة الكائنة بينهما. فلست أعرف مثلا كيف أن ارادتى تكون سبباً دافعاً لى على احداث حركاتى البدنية . ولكن يكفي عندي أن أعتقد فى حقيقة أن ارادتى تدفعنى على القيام بحركاتى الجسمانية . وعلى هذا السنن ، وعلى هذه القاعدة ذاتها ؛ يكفي عندي أن ألزم بالاعتقاد بوجود خالق ، من غير أن أجد نفسى مضطراً لأن أظهر كيف انه السبب في وجود الأشياء ؛ وكيف أنه علتها ؟ وفضلا عن كل هذا فان الكون المادي اذ يقتصر وجوده لدينا على تكوين عقولنا : فليس من الضروى أن أجعل المادة موضع اهتمامى فى بحثي وراء الحقيقة ، بل أوجه كل همى نحو ذلك الشيء الذى لايكون للمادة عندي من وجود الا به ــ أى العقل.

على هذا نجد أن الاعتقاد بوجود الله أو خالق او مصدر للاشياء او علة لها أو ما شئت فقل، فرض ضرورى يقوم على حاجات العقل ومقتضياته. وعلى هذا الفرض الضرورى قس كل بقية الفروض التى لا يمكن للعقل ان يحتفظ

بألفته من غير ان يسلم بها ، ولا يمكن للعلم ان ينفيها ، ولو عجز عن اثبات وجودها بأساليبه الموضوعة .

١١ - ما بعد الفرض الضروري فرض امكاني

عرفنا الفرض الامكاني بأنه الفرض الذي يستوي فيه حدي الوجود والعدم ؛ او الذي يحتمل ان يكون له حقيقة موجودة ؛ كما يحتمل ان لا يكون له أية حقيقة في الخارج . وذكرنا ان معنى هذا ان العقل اذا سلم بالفرض الامكاني ام لم يسلم ، فانه يظل محتفظا بالفته كاملة . في حين ان العلم يرفض التسليم بالفروض الامكانية رفضاً باتاً صريحاً مالم تثبت صحتها ثبوتاً قاطعاً بالأساليب العلمية المعروفة . وعلى مقتضى التحديد والشرح الذي حددنا به الفرض الضروري يمكن أن تتخذ هذا التحديد قياساً نقيس عليه في التفريق بين الفرض الضروري والفرض الامكاني .

اذا استطعنا ان نعي هذه المبادئ فلا جرم اننا نستطيع ان نحدد المعقولات تحديداً يجعلها اكثر خضوعا لأحكام العقل وكفاياته وخرجنا من ظلمات الجدل الى وضح الطريق العقلي الصرف نمتع بثمراته وتتخذه قاعدة نبني عليها صرح العلم ونشيد من فوقه بناء الفلسفة والآداب .

وبعد : فهذا تصدير رأينا من الضروري ان يستوعبه كل قارئ قبل ان يمضي في قراءة هذا الكتاب

قصة الطوفان وتطورها

يعتقد كل الذين درسوا العبرانيات القديمة ، وكل من أكب على تحليل سفر التكوين — وهو السفر الأول من توراة موسى (١) — أن القصص التي يتضمنها إنما ترجع في أصلها الى أسطورتين قديمتين تخالطتا وتمازجتا مع الزمان وعلى تتالى العصور ؛ فتكون منها سفر التكوين الموسوى ، الذى يظهر لنا كيف خلق العالم ؛ وكيف خلق آدم ؛ ثم كيف طرد ، ثم تكاثر نسله ، ثم أغرقه الطوفان في زمان نوح ؛ ثم تكاثر ثانية من بعد ذلك .

واذا قرأت بقية أسفار موسى : وبالأحرى الأسفار المنسوبة اليه ؛ — خروج ، لاويين ، عدد ، تثنية — تجد أنها مزيج من أخبار تاريخية تكثر فيها الأقاصيص ومواعظ هى بين الأخلاقيات والارشاديات . وفي جماع هذه الأسفار لا تقع على شىء من انسجام الوضع ، ولا من دقة التاريخ ، ومن كل هذه الأشياء ، يذهب دارسو العبرانيات والآثار في سلسلة طويلة من الأبحاث ، يستنتجون منها في النهاية أن هذه الأقاصيص جمع وتوليف من أقاصيص وروايات أبعد منها زماناً ، وأعرق قدماً .

يقول المستر ديكسون وايت :

« من بين مجموعة النقوش الكاتدرائية ، التى تعبر عن كثير من حقائق اللاهوت فى العصور الوسطى ، نقش يمتاز بالتعبير عن مذهب لاهوتى في

١ — يعتقد كثير من الباحثين أن موسى لم يكتب التوراة بل أنها منحولة عليه منسوبة إليه فقط وآخر رأى ظهر فى هذا الأمر للاستاذ جبر دومط إذ ينسب الى يوسف الصديق أنه كتب سفر التكوين

أصل الكون ، ظل موضع الاحترام والاجلال أزمانا طوالا » .

الواحد القهار ؛ في صورة بشرية ، جالس بوداعة و لين ، يصنع الشمس والقمر و الكواكب ، و يعلقها في القبة الصلبة التى تحمل من فوقها « السماوات العلا » ، و تظلل « الأرض السفلى » .

« أما علائم التفكير الظاهرة فى تقطب جبينه فتنم على أنه أجهد نفسه إمعاناً فى التدبر والاستبصار ، كما يدل انتفاخ عضلات ذراعيه على أنه قد اضطر الى أن يكد وينصب . و من الطبيعى أن يكون المثالون والمصورون خلال القرون الوسطى ـ و فى بدء العصور الحديثة ـ قد عمدوا الى تمثيله على مقتضى ما تصوره كتاب ذلك العصر ، اذ كانوا يقولون بأنه استراح في اليوم السابع ؛ واضطجع فى هدأة ، مصغياً الى تراتيل الثناء التى زفتها إليه سكان السماء » .

« من حول هذه الفكرات العتيقة التى فاضت بها الكاتدرائيات ، و فى غيرها من الآراء التى عبرت عنها النقوش والصور وتلوين الزجاج وزخارف الفسيفساء و الحفر خلال القرون الوسطى ، و قرنين فرطا من بعد تلك العصور ؛ تكثفت نواة من الاعتقاد كانت قد أخذت تتكون خلال ألوف من السنين ، و مضت محتكمة في كل ما أبرز العقل الانسانى من صور الفكر حتى عصرنا هذا » .

أما بدايات ذلك الاعتقاد فترجع الى أعرق عصور التاريخ قدماً ، فاننا نجدها في أوليات كل مدنية من المدنيات العظمى ، بيد أنها شغلت في كل الكتب المقدسة التى ذاعت فى نواحى العالم ، على تعددها و كثرتها ؛ مكاناً علياً . ففي كل المدنيات تقع على فكرة وجود خالق ، ليس الانسان إلاصورة منه غير كاملة ، و أنه خلق الكون المنظور بطريقة مباشرة مستخدماً فى الخلق يديه و أصابعه » .

« من بين تلك النظريات عدد غير صغير مضى محتكما فى اللاهوت الكلدانى ، و من الواجب أن نخصه بشئ من العناية و التقدير . فان النقوش الأشورية التى استكشفت حديثاً : و نقلها الى العالم الانجليزى أعلام من أمثال لايارد و جورج سميث و سايس وغيرهم ؛ لترينا أنه قد تغلغلت في تضاعيف الأديان الكلدانية و البابلية قصة في حقيقة الخلق من أهم مزاياها وأخطر وقائعها ، انها لا بد من أن تكون النواة التى فرخت منها تلك القصص التى نقع عليها فى كتبنا المقدسة . و لقد ظهر بأجلى بيان أن تلك الفكرات التى تشغل أعلا مكانة فى أسفار العبرانيين ، قد استمدت من ذلك النبع الذي فاض على المدنيات الكلدانية البابلية و الأشورية والفينيقية بتلك القصص التى وضعت فى حقيقة خلق العالم . فى تينك القصتين اللتين تخالطتا في سفر التكوين ، و فى تلك الرواية التى يمكن أن يستدل عليها بأشياء في سفر «أيوب» (Job) يتمثل لك بكل ما يستطاع أن تتخيل من العظمة و القدرة ، نفس ذلك التصور فى حقيقة الخالق و الخلق ، وهو تصور خليق بالمدنية إذ هى بعد في مهد طفولتها وغرارتها ، فيبرز لك الخالق فى صورة بشرية مكبرة ، وهو يكد فى العمل بأطرافه و يمثل لك الخلق « مصنوعا بيده » . و لقد نشأ ، تعقيباً على هذا التصور ، اعتقاد فى الخالق على أنه شخص بعد أن « قذف من راحة يده الى الفضاء بكل السيارات لتجوب أنحاء المكان » جلس فى العلاء فوق العرش المستقر « على فلك السماء » جاداً أبداً فى أن يحكم سيرها و يهديها طريقها»

و بعد أن يستطرد العلامة « وايت» فى وصف كيفية الخلق و المادة التى خلق منها يعود الى الكلام فى الخلاف على الزمان الذي خلق فيه العالم فيقول :—

« إن سلسلة الجهود الطويلة التى بذلها رجال خصوا بأوسع المدارك وارجح الأحلام من إيوسيبيوس الى يوشر ؛ فى سبيل تحديد التاريخ الذى

وقع فيه الخلق ، قد تركت الكلام فيه لفصل آخر (١) ويكفي هنا أن نذكر أن النتيجة الأخيرة التي وصلت اليها الأغلبية العظمى ممن يعتبرون من أقدر الذين أكبوا على درس الأقوال التى جاءت فى الكتاب المقدس ، قد أسلمت الى القول بأن الخلق قد وقع فى زمان تعد سنوه بعدد عشرى ؛ ويقع حوالى سنة ٤٠٠٠ ق . م . وفى القرن السابع عشر ذكر الدكتور « جون ليتفوت » وكيل جامعة كمبردج ومن أشهر من نبغ ممن درسوا العبرانيات ، ان نتيجة أبحاثه القصية المستفيضة فى التوراة والانجيل ؛ قد أدت به الى حقيقة أن « السماء والأرض ، والمحيط والمركز ؛ قد خلقن معاً ؛ وفى وقت واحد ، حيث كان الغمام الكثيف مملوء بالماء ، وأن هذا العمل قد وقع ؛ وأن الانسان قد خلق بقدرة الثالوث الأقدس ؛ فى ٢٣ أكتوبر سنة ٤٠٠٤ قبل الميلاد ، حيث كانت الساعة التاسعة من الصباح » .

« وكان هذا انتصار لأسلوب « لاكتانتيوس » وهو نتيجة الدرس العميق فى الانجيل والتوراة مئات من السنين ، وغاية لجهد الفكرة اللاهوتية منذ أن ظهر « بيده » فى القرن الثامن الى زمان « فنسنت بوفييه » حيث أعلن فى القرن الثالث عشر أن الخلق لا بد من أن يكون قد وقع فى فصل الربيع . لكن واأسفاه ! فانه لم يمض قرنان على ما بذل دكتور « ليتفوت » من جهد فى درس العبارات المنزلة ليستخلص منها حقائق يحدد بها ساعة الخلق وتاريخه ؛ حتى استكشف الباحثون أنه فى تلك الساعة التى حددها هذا اللاهوتى ، كانت أمة من أرقى الأمم مدنية وأمثلهن تهذيباً ؛ رافلة فى أبهى حلة خلعتها الحضارات على الأمم فى الأزمان القديمة ، بل كانت منذ عهد عهيد ؛ تجوب أنحاء العواصم المشيدة فى مصر على ضفاف النيل ، وأن أمماً أخرى لا تكاد

---

١ — من كتاب تاريخ تنازع البقاء بين اللاهوت والعلم فى عصور النصرانية

تقل عن هذه مدنية وعلماً ؛ قد بلغن درجة خطيرة من النشوء والارتقاء تحت سماء آسيا » .

ooo

هذا ملخص أولى من رأى الباحثين فى أصل الروايات المقدسة . على أن علم مقارنة الأديان قد زودنا بالكثير من دقائق الشبه الواقعة بين كثير من الروايات المتناثرة فى الكتب الدينية . لهذا نعمد الى المقارنة بين الروايات الثلاث التى نعثر عليها فى القرآن والتوراة وألواح بابل وأشور خاصة بسيرة نوح لنستخلص من هذه المقارنة قاعدة نبنى عليها حكما صحيحاً فى أصل هذه الروايات ومنشئها . ويحسن بنا ان ننقل هذه الروايات كما اثبتت فى القرآن والتوراة ؛ ونترجم ما يختص بها فى الواح بابل ثم نمضى بعد ذلك فى المقارنة العلمية .

ooo

الطوفان فى القرآن

ولقد ارسلنا نوحاً إلى قومه انى لكم نذير مبين . ان لا تعبدوا إلا الله إنى اخاف عليكم عذاب يوم اليم . فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نريك إلا بشراً مثلنا وما نريك اتبعك إلا الذين هم اراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين . قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتينى رحمة من عنده فعميت عليكم انلزمكموها وانتم لها كارهون . وياقوم لا أسألكم عليه مالا إن اجري إلا على الله وما انا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكنى اراكم قوماً تجهلون . وياقوم من ينصرنى من الله إن طردتهم افلا تذكرون . ولا اقول لكم عندى خزائن الله ولا اعلم الغيب ولا اقول إنى ملك ولا اقول للذين تزدرى اعينكم لن يؤتيهم الله خيراً الله اعلم

بما فى انفسهم انى إذن لمن الظالمين . قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما انتم بمعجزين . ولا ينفعكم نصحى إن اردت ان انصح لكم إن كان الله يريد ان يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون . ام يقولون افتريه قل إن افتريته فعلىّ إجرامى وانا برئ مما تجرمون . وأوحى الى نوح انه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون . واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني فى الذين ظلموا إنهم مغرقون . ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه . قال إن تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون . فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم . حتي اذا جاء امرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين واهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل . وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرسيها إن ربى لغفور رحيم . وهى تجري بهم فى موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال سآوى الى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من امر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين . وقيل ياارض ابلعى ماءك وياسماء اقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعداً للقوم الظالمين . ونادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من اهلى وان وعدك الحق وانت احكم الحاكمين . قال يانوح إنه ليس من اهلك انه عمل غير صالح . فلاتسئلن ما ليس لك به علم إنى اعظك ان تكون من الجاهلين . قال رب إنى اعوذ بك ان اسئلك ما ليس لى به علم والا تغفر لى وترحمنى اكن من الخاسرين . قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى امم ممن معك وامم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب اليم . تلك من انباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴿ هود ﴾

٭٭٭

إنا ارسلنا نوحاً الى قومه ان انذر قومك من قبل ان ياتيهم عذاب اليم . قال ياقوم إنى لكم نذير مبين . ان اعبدوا الله واتقوه واطيعون. يغفر لكم من ذنوبكم و يؤخركم الى اجل مسمى ان اجل الله اذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون. قال رب إنى دعوت قومى ليلا و نهاراً . فلم يزدهم دعائى إلا فراراً . و انى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا اصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم و اصروا واستكبروا استكباراً . ثم إنى دعوتهم جهاراً . ثم إنى اعلنت لهم و اسررت لهم اسراراً . فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً . يرسل السماء عليكم مدراراً . و يمددكم بأموال و بنين و يجعل لكم جنات و يجعل لكم انهاراً . ما لكم لاترجون لله وقاراً و قد خلقكم اطواراً . الم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا . و جعل القمر فيهن نوراً و جعل الشمس سراجا . و الله أنبتكم من الأرض نباتاً . ثم يعيدكم فيها و يخرجكم إخراجا . و الله جعل لكم الأرض بساطاً . لتسلكوا منها سبلا فجاجا . قال نوح رب إنهم عصونى و اتبعوا من لم يزده ماله و ولده إلا خساراً . و مكروا مكراً كباراً . و قالوا لا تذرن آلهتكم و لا تذرن وداً و لا سواعا و لا يغوث و يعوق و نسراً . و قد أضلوا كثيراً و لا تزد الظالمين إلا ضلالا . مما خطيئاتهم أغرقوا فادخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً . و قال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك و لا يلدوا إلا فاجراً كفاراً . رب اغفر لى و لوالدى و لمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين و المؤمنات و لا تزد الظالمين إلا تباراً .

« نوح »

« ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون . فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين » . « العنكبوت »

« كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد » « ص »

« إنا لما طغا الماء حملنا كم في الجارية . لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية » « الحاقة »

« كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر . فدعا ربه أني مغلوب فانتصر . ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر . وحملناه على ذات ألواح ودسر . تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر . ولقد تركناها آية فهل من مدكر . فكيف كان عذابي ونذر » « القمر »

الطوفان في التوراة

عن سفر التكوين

الاصحاح السادس

وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات أن أبناء الله رأوا بنات الناس انهن حسنات . فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل مااختاروا فقال الرب لا يدين روحي في الانسان الى الأبد : لزيغانه هو بشر وتكون أيامه مائة وعشرين سنة . كان في الأرض طغاة في تلك الأيام . وبعد ذلك أيضاً إذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولاداً . هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم .

ورأى الرب أن شر الانسان قد كثر في الأرض . وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم . فحزن الرب انه عمل الانسان في الأرض . وتأسف في قلبه . فقال الرب أمحو عن وجه الأرض الانسان الذي خلقته . الانسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء . لأني حزنت أني عملتهم . وأما نوح فوجد نعمة في عيني الرب .

هذه مواليد نوح : كان نوح رجلا باراً كاملا في أجياله . وسار نوح مع الله . وولد نوح ثلاثة بنين ساماً وحاماً ويافث . وفسدت الأرض أمام الله وامتلأت الأرض ظلماً . ورأى الله الأرض فاذا هي قد فسدت . إذ كان كل بشر قد أفسد طريقه على الأرض .

فقال الله لنوح نهاية كل بشر قد أتت أمامى لأن الأرض امتلأت ظلماً منهم . فها أنا مهلكهم مع الأرض . اصنع لنفسك فلكا من خشب جفر تجعل الفلك مساكن وتطليه من داخل ومن خارج بالقار . وهكذا تصنعه . ثلث مئة ذراع يكون طول الفلك وخمسين ذراعا عرضه وثلثين ذراعا ارتفاعه . وتصنع كواً للفلك وتكمله الى حد ذراع من فوق . وتصنع باب الفلك فى جانبه . مساكن سفلية ومتوسطة وعلوية تجعله . فها أنا آت بطوفان الماء على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح حيوة من تحت السماء . كل ما في الأرض يموت . ولكن أقيم عهدى معك . فتدخل الفلك أنت وبنوك وامرأتك ونساء بنيك معك . ومن كل حى من كل ذى جسد اثنين من كل تدخل الى الفلك لاستبقائها معك . تكون ذكراً وأنثى . من الطيور كأجناسها ومن البهائم كأجناسها ومن كل دبابات الأرض كأجناسها . اثنين من كل تدخل اليك لاستبقائها . وأنت تخذ لنفسك من كل طعام يوكل واجمعه عندك . فيكون لك ولها طعاماً . ففعل نوح حسب كل ما أمره به الله . هكذا فعل .

الاصحاح السابع

وقال الرب لنوح ادخل أنت وجميع بنيك الى الفلك لأنى إياك رأيت باراً لدى فى هذا الجيل . من جميع البهائم الطاهرة تأخذ معك سبعة سبعة ذكراً وأنثى . ومن البهائم التى ليست بطاهرة اثنين ذكراً وأنثى . ومن طيور السماء أيضاً سبعة سبعة ذكراً وانثى . لاستبقاء نسل على وجه الأرض . لأنى بعد سبعة أيام ايضاً امطر على الأرض اربعين يوماً واربعين ليلة .

وأمحو عن وجه الأرض كل قائم عملته . ففعل نوح حسب كل ما امره به الرب.

ولما كان نوح ابن ست مئة سنة صار طوفان الماء على الأرض . فدخل نوح وبنوه وامرأته ونساء بنيه معه الى الفلك من وجه مياه الطوفان . ومن البهائم الطاهرة والبهائم التى ليست بطاهرة ومن الطيور وكل ما يدب على الأرض دخل اثنان اثنان الى نوح الى الفلك ذكراً وانثى . كما امر الله نوحاً.

وحدث بعد السبعة الأيام ان مياه الطوفان صارت على الأرض . في سنة ست مئة من حيوة نوح فى الشهر الثانى فى اليوم السابع عشر من الشهر فى ذلك اليوم انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم وانفتحت طاقات السماء . وكان المطر على الارض أربعين يوما وأربعين ليلة . فى ذلك اليوم عينه دخل نوح وسام وحام ويافث بنو نوح وامرأة نوح وثلث نساء بنيه معهم الى الفلك. هم وكل الوحوش كأجناسها وكل البهائم كأجناسها وكل الدبابات التى تدب على الارض كأجناسها وكل الطيور كأجناسها كل عصفور كل ذى جناح . ودخلت إلى نوح إلى الفلك اثنين اثنين من كل جسد فيه روح حياة . والداخلات دخلت ذكراً وأنثى من كل ذي جسد كما أمره الله . وأغلق الرب عليه.

وكان الطوفان أربعين يوماً على الارض . وتكاثرت المياه ورفعت الفلك . فارتفع عن الارض . وتعاظمت المياه وتكاثرت جداً على الارض . فكان الفلك يسير على وجه الماء . وتعاظمت المياه كثيرا جدا على الارض فتغطت جميع الجبال الشامخة التى تحت كل السماء . خمس عشرة ذراعا فى الارتفاع تعاظمت المياه . فتغطت الجبال . فمات كل ذي جسد كان يدب على الارض . من الطيور والبهائم والوحوش وكل الزحافات التى كانت تزحف على الارض وجميع الناس . كل ما فى أنفه نسمة روح حياة من كل ما فى اليابسة مات . فمحا الله كل قائم كان على وجه الارض . الناس والبهائم والدبابات وطيور السماء . فانمحت من الارض . وتبقى نوح والذين معه فى الفلك فقط . وتعاظمت المياه على الأرض مئة وخمسين يوماً .

ثم ذكر الله نوحاً وكل الوحوش وكل البهائم التى معه فى الفلك . وأجاز الله ريحاً على الأرض فهدأت المياه ، وانسدت ينابيع الغمر وطاقات السماء . فامتنع المطر من السماء . ورجعت المياه عن الارض رجوعاً متوالياً . وبعد مئة وخمسين يوماً نقصت المياه . واستقر الفلك فى الشهر السابع فى اليوم السابع عشر من الشهر على جبل أراراط . وكانت المياه تنقص نقصاً متوالياً إلى الشهر العاشر . وفى العاشر من أول الشهر ظهرت رؤوس الجبال .

وحدث بعد أربعين يوماً أن نوحاً فتح طاقة الفلك التى كان قد عملها وأرسل الغراب . فخرج متردداً حتى نشفت المياه عن الأرض . ثم أرسل الحمامة من عنده ليرى هل قلت المياه عن وجه الارض . فلم تجد الحمامة مقراً لرجلها . فرجعت اليه إلى الفلك . فلبث أيضاً سبعة أيام أخر وعاد فأرسل الحمامة من الفلك . فأتت اليه الحمامة عند المساء . وإذا ورقة زيتون خضراء فى فمها . فعلم نوح أن المياه قد قلت عن الارض . فلبث أيضاً سبعة أيام أخر وأرسل الحمامة فلم تعد ترجع اليه أيضا .

وكلم الله نوحاً قائلا . أخرج من الفلك أنت وامرأتك وبنوك ونساء بنيك معك ، وكل الحيوانات التى معك من كل ذي جسد الطيور والبهائم وكل الدبابات التى تدب على الارض أخرجها معك . ولتتوالد فى الارض وتثمر وتكثر على الارض . فخرج نوح وبنوه وامرأته ونساء بنيه معه وكل الحيوانات كل الدبابات وكل الطيور كل ما يدب على الارض كانواعها خرجت من الفلك .

وبنى نوح مذبحاً للرب . وأخذ من كل البهائم الطاهرة ومن كل الطيور وأصعد محرقات على المذبح . فتنسم الرب رائحة الرضا . وقال الرب فى قلبه لاأعود ألعن الارض أيضاً من أجل الانسان لانه تصور قلب الانسان شرير

منذ حداثته . ولا أعود أيضاً أميت كل حي كما فعلت . مدة كل على الارض زرع وحصاد وبرد وحر وصيف وشتاء ونهار وليل لا تزال .

الاصحاح التاسع

وبارك الله نوحاً وبنيه وقال لهم أثمروا واملأوا الارض . ولتكن خشيتكم ورهبتكم على كل حيوانات الارض وكل طيور السماء . مع كل مايدب على الارض وكل أسماك البحر قد رفعت إلى أيديكم . كل دابة حية تكون لكم طعاماً . كالعشب الاخضر دفعت اليكم الجميع غير أن لحماً بحياته دمه لا تأكلوه . وأطلب أنا دمكم لانفسكم . من يد كل حيوان أطلبه . ومن يد الانسان أطلب نفس الانسان . من يد الانسان أخيه . سافك دم الانسان بالانسان يسفك دمه . لأن الله على صورته عمل الانسان . فأثمروا أنتم وأكثروا وتوالدوا فى الارض وتكاثروا فيها .

وكلم الله نوحاً وبنيه معه قائلا . وها أنا مقيم ميثاقى معكم ومع نسلكم من بعدكم . ومع كل ذوات الانفس الحية التى معكم . الطيور والبهائم وكل وحوش الارض التى معكم من جميع الخارجين من الفلك حتى كل حيوان الارض . أقيم ميثاقى معكم فلا ينقرض كل ذى جسد أيضاً بمياه الطوفان . ولا يكون أيضاً طوفان ليخرب الارض . وقال الله هذه علامة الميثاق الذى أناواضعه بينى وبينكم وبين كل ذوات الانفس الحية التى معكم إلى أجيال الدهر . وضعت قوسى فى السحاب فتكون علامة ميثاق بينى وبين الارض . فيكون متى نشر سحاباً على الارض وتظهر القوس في السحاب انى أذكر ميثاقى الذى بينى وبينكم وبين كل نفس حية فى كل جسد . فلا تكون أيضاً المياه طوفاناً لتهلك كل ذى جسد . فمتى كانت القوس فى السحاب أبصرها لأذكر ميثاقاً أبدياً بين الله وبين كل نفس حية فى كل جسد على الارض . وقال الله لنوح هذه علامة الميثاق الذى أنا أقمته بينى وبين كل ذي جسد على الارض

وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك ساماً وحاماً ويافث. وحام هو أبو كنعان. وهؤلاء الثلاثة هم بنو نوح. ومن هؤلاء تشعبت كل الارض

وابتدأ نوح يكون فلاحاً وغرس كرماً. وشرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه. فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه وأخبر أخويه خارجاً. فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما ووجهاهما إلى الوراء. فلم يبصرا عورة أبيهما. فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير. فقال ملعون كنعان. عبد العبيد يكون لاخوته. وقال مبارك الرب آله سام. وليكن كنعان عبداً لهم. ليفتح الله ليافث فيسكن فى مساكن سام. وليكن كنعان عبداً لهم.

وعاش نوح بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة. فكانت كل أيام نوح تسعمائة وخمسين سنة ومات.

***

الطوفان فى أساطير اشور وبابل

اسطورة الطوفان فى ألواح بابل واشور قسم من قصة حماسية بطلها شخص يدعى «غلغامش» «Gilgamesh» منقوشة بالخط المسماري فى اثنى عشر لوحاً. وتعتبر قصة «غلغامش» الشعرية فى صف واحد مع قصة الخلق البابلية من حيث القيمة الادبية بين كل ما خلف أهل بابل من الآثار. أما عناصرها المكونة لها فجمع بين كثير من المادة الميثولوجية استمدت من منابع كثيرة. ويجوز أن يكون لها أصل تاريخي تعود اليه نشأتها. ومن مجموع المادة الميثولوجية وتلك الأصول التاريخية التى يرجح البعض أن القصة ترتكز عليها، نسجت هذه الأسطورة فأصبحت قصة واحدة مؤتلفة الوقائع

والحوادث ، وكلها تدور حول البطل « غلغامش ، أمير « أرك » « Erech »
أما المرجع الذى استمد منه الباحثون أصول هذه القصة فهو على الأخص
بقايا الألواح المشوهة التى عثر عليها في مكتبة « اشوربانبال » -Assur
bani-pal غير أن كثيراً من الشواهد والملاحظات التى عثر عليها
الارخيولوجيون تدل على أن بعض تقاليد هذه القصة على الأقل ، ان لم تكن
كلها ؛ انما ترجع إلى عهد أبعد بكثير من عهد « اشوربانبال » . فانك تجد مثلا
أن لوحاً يرجع تاريخه إلى ٢١٠٠ سنة ق . م يحتوى على قصة فى الطوفان هى
بذاتها التى أدمجت فى قصة « غلغامش » وذكرت في اللوح الحادى عشر من
ألواحها . والراجح أن هذه القطعة وغيرها من المقاطع التى تتكون منها هذه
الأسطورة ، قد تنوقلت بالرواية التقليدية أزماناً طويلة قبل أن تنقش على
هذه الالواح — أى أنها ترجع إلى العهد السومرانى « Sumerian period »

كان « اشوربانبال » من أكثر الملوك عناية بالادب ومن حماة الثقافة .
فقد جمع فى مكتبته العظيمة بمدينة « نينوه » —Nineveh— (وهى المكتبة
التى نقل نواتها الملك « سنكريب » - « Senanchrib » من بلدة كالح
(Cala) خزانة عظيمة من المجلدات والالواح الكلسية وأوراق البردى ،
نقل معظمها كغنائم حربية من البلاد التى غزاها . واستأجر النساخ لينقلوا له
صوراً من المتون القديمة . وإلى هذه الطريقة على ما يظهر ، يرجع السبب فى
تسطير قصة « غلغامش » الشعرية . ولقد يظهر من القطع والأجزاء المحفوظة
الآن فى دار العاديات الانجليزية ؛ أن أربع نسخ من هذه القصة على الأقل
قد نقلت فى عصر « اشوربانبال » . غير أن الحوادث لم تبق على هذه النسخ
من غير أن تتناولها بالتبديد والتخريب . فان الامبراطورية الاشورية كانت
آخذة فى سبيل الفساد والانحلال بسرعة . ولم يمض زمن طويل حتى سقطت
« نينوة » وتبددت مكتبتها الكبرى ، فى حين أن المغتنمين قد أحرقوا لفائف

البردى ، و دفنوا الألواح الكلسية مع انقاض القصر الذى كان يحويها.

وهنالك ظلت هذه الألواح ألفين من السنين حتى أدركها سير ا.ه. لايارد ومستر جورج سميث بتنقيباتهما ، فأخرجاها الى الناس مرة أخري . ولا مراء فى أن الألواح الاثنى عشرة التى تتضمن قصة « غلغامش » (أو أجزاءها الباقية منها والتى استكشفت حتى الآن) مشوهة تشويهاً كبيراً. فقد تجد أن معنى فقرة برمتها قد غمض وتعذر فهمه بفجوة حادثة فى المتن الاصلى ، ولا جرم أن مثل هـذه الفجوات ليست بالشيء التافه عند الذين يريدون أن يدرسوا الأساطير الميثولوجية درساً وافياً و يقفوا على تفاصيلها بدقة تفي بأغراض البحث العلمى . غير انه على الرغم من كل هـذا ، فان علم مقارنة الأديان قد تقدم فى العهد الاخير الى درجة أصبحنا معها أقدر على أن ندرك من أهمية هـذه القصة الشعرية الميثولوجية ؛ وأن نقرأها بدقة لم يبلغها البابليون أنفسهم ؛ لأنهم لم يعرفوا من هذه القصة إلا أنهـا مجرد رواية للمخاطرات و الافعال العظيمة التى قام بها أحد أبطالها .

إن القصة الشعرية التى تدور حوادثها حول مدينة « اريخ » قد سيقت فى مخاطرات بطل نصف انسان ونصف إله يدعى « غلغامش » ؛ كان ملكا فى تلك المدينـة . وفى القصة شخصيتان أخريان هما شخصية « ايبانى » « Eabani » وهى الشخصية التى تمثل الانسان البدائى على الأرجح ؛ و شخصية « أوت ـ نابشتيم » «Ut - napishtim» بطل رواية الطوفان البابلية . ويرجح أن كلا من هؤلاء الأبطال الثلاثة كان محور مجموعة من الأساطير التقليدية تدامجت بعضها فى بعض مع مضى الزمان ، بطريقـة ما من الطرق ، وعلى أسلوب غير بين تماماً .

أما أكثر شخصيات هذا الثالوث أهمية و أولهم من حيث القيمة فالبطل « غلغامش » . ولا يبعد أن يكون شخصاً حقيقياً عاش خلال عصر من

عصور بابل ، غير أنه ليس لدينا من التاريخ الثابت مايؤيد هذا الزعم . كما أنه يحتمل أن تكون مجازفات أحد ملوك مدينة « أرك » في العصور القديمة قد اتخذت نواة بنيت عليها هذه القصة . أما اسمه فقد نطقه الباحثون «غزدبوبار» « Gisdbubar » أو « از دو بار » Izdubar » غير أنه قد عرف الآن انه كان ينطق « غلغامش » « Gilgamesh » كما حقق ذلك العلامة « بنشيز » « Pinches » . أما الاسم فلا يدل على أنه كان « بابلي » الاصل بل يرجح أنه كان « عدلامي » « Elamite » أو « قسي » « Kassite » أصلا ودماً . ويتضح من بعض الاشارات التي يعثر عليها في الالواح أنه غزا « أرك » (أو أنه أنقذ المدينة من جيش محاصر لها) عند بدء مخاطراته التي تتكون منها الاسطورة . وزعم البعض أنه بذاته « النمرود » الذى ذكرته الأناجيل ، وهو كالآخر ، بطل من أبطال بابل القديمة . غير أن هذا الزعم لا يقوم على أدلة مقنعة .

هذا كل ما يمكننا أن نقول أنه وصلنا تاريخياً عن « غلغامش » . أما شخصيته الميثولوجية فأقل تعقيداً وأسهل فهماً . فهو في الاساطير البابلية عبارة عن الشمس متجسدة في صورة انسان . في حين أن حقيقته ، على ماأجمع المؤرخون تنحصر في أنه مزيج من كائن خرافي وبطل وطني ؛ تدامجا لتخرج منهما شخصية اسطورية . فانك تجد في خلال القصة وفي كثير من مواضعها اشارات تدل على أن « غلغامش » كان نصف انسان ونصف آله ولو انك لا تقع على شيء محدود ينص على هذه المسألة بالذات . وفرق مابين الاشارة والنص الحرفي . وحقيقته باعتباره « آله الشمس » مستورة بألغاز خلال القصة ، ولو أنه من الجلي أن له علاقة ما بالآله « شاماش » « Shamash » الذي يقدم « غلغامش » اليه خضوعه ويخصه بصلواته ، والذي يتخذه حامياً ونصيرا .

« مولد غلغامش »

من بين الاساطير المتناقلة عن مولد « غلغامش » أسطورة رواها « آليان » « Aelian » (راجع Historia animalium XII) وسماه « غلغاموس » « Gilgamos » بن « سوقاروس » « Sokkaros » أما «سوقاروس» فيقول « بيروسوس » « Berossus » انه أول ملك حكم بابل بعد الطوفان ، وان النذر الربانية قد انذرته بأن ابنته سوف تلد طفلا يبز له عن عرشه ويستأثر به. ومن أجل أن يدفع عن نفسه القدر المقدور ، سجنها في برج منيع ، وأقام عليها الرقباء والحراس . غير أنها على الرغم من هذا ولدت ولداً . بيد أن الحراس ليقينهم بأن غضب الملك سوف يكون شديداً إذا علم بمولد هذا الطفل ، ألقوا به من أعلى البرج إلى الخارج . ولم يصل الطفل إلى الأرض ، بل التقطه نسر عظيم قبل أن تصدمه الصخور ، وطار به إلى حديقة ، حيث التقطه فلاح كان يعمل بها وقام عليه بالرباية والعناية الواجبة . فلما بلغ هذا الطفل مبالغ الرجال ، أصبح ملكا على كل البابليين ؛ بأن اغتصب عرش جده عنوة واقتدارا .

هنا نقع على أسطورة يظهر كل الظهور أن لها علاقة بالشمس ، وأنها تتفق كل الاتفاق جملة وتفصيلا مع صور اسطورية أخري مستمدة من ألوهية الشمس . ولا يمكن أن يكون مجرد الاتفاق والمصادفة سبباً في أن تلصق هذه الاسطورة بغلغامش . فان كل ما في القصة يدل على اعتقاد ثابت بأن « غلغامش » من آلهة الشمس ؛ وعلاقته « بشاماش » « Shamash » الذى لا يبعد أن يكون اباه ارتكاناً على الأسطورة التي رواها « آليان » وكذلك النسر الذي أنقذه من الاصطدام بالأرض لدي القائه من أعلى البرج . أضف إلى ذلك أن كل الاسطورة خلو من ذكر أبيه ، في حين أن أمه قد ذكرت مرات عديدة ، وأن روح القصة من أولها إلى آخرها يرمى الى الاشارة ،

بانه أكثر من انسان .

أما وقد استطعنا أن نعرف شيئا عن حقيقة شخصيته الميثولوجية ؛ فلا يصعب علينا بعد ذلك أن نستدل من مخاطراته على مطابقة تناظر سير الشمس يومياً (أوسنوياً) إذ تكون في عظمتها وقوتها لدي الظهيرة (أو فى منتصف الصيف) ثم تنحدر إلى المغيب تلقاء الأفق الغربى ، لتعود من بعد ذلك مرة أخرى إلى مآهل الناس . وهو ككل آلهة الشمس - إذ تكون كالشمس نفسها - من حيث مولدها و أصلها ، محفوفة بالاسرار محوطة بالالغاز . وهو كذلك شخصية تمثل احد « الاولاد المنحوسين » - مثل « سرجون » ، « وفرساوس » . فانه إنما يظهر فى الرواية لاول مرة بطلا كامل أوصاف البطولة ؛ حاكما مستبدا بمدينة « أرك » . أما أمه « ريمات - بليت » - Rimat - belit - فكاهنة بمعبد « عشتار » ، « Ishtar » وهو من طريقها أحد خلائف « أوت - نابشتيم » أحد أهالى « شورباك » ، « Shurippak » و بطل رواية الطوفان البابلية . وفى أول القصة تقع على علاقته بالرجل المتوحش « إيبانى » ؛ وهو رجل خلقته الآلهة وصورته من أجل أن يحطم « غلغامش » ، ويذهب بريحه . غير أن الصداقة تقوم بينهما مقام العداء . ويذهب الاثنان معا ليحاربا « المسخ خومبابا » ، « khumbaba » فينتصرا عليه ! كما ينتصرا أيضا على الثور المقدس الذى يرسله عليهما الآله « عانو » ، « Anu » ويستمر انتصارهما تاما متتابعا حتى نهاية اللوح السادس . وتستمر قوة « غلغامش » فى الازدياد كالشمس اذ تقارب الأوج . وفى أول اللوح السابع يأخذ سعده فى الأفول . فيموت « إيبانى » ، اذ يقتل تحت تأثر غضب « عشتار » بعد أن يرفض « غلغامش » حبها باحتقار ويردها بازدراء . وهنا يحزن « غلغامش » على موت صاحبه حزناً شديداً ويداخله الخوف من أن يموت كما مات رفيقه ، فيصمم على الذهاب باحثا وراء سلفه « أوت - نابشتيم » (على اعتبار انه

الشخص الوحيد الذي نجا من الطوفان مسحته الآلهة بمسحة الالوهية ووهبته الخلود، ليعرف منه سر الحياه الخالدة. اما مخاطراته التي يصادفها في هذه السبيل فليس عليها من صبغة العظمة ماكان لمخاطراته الأولى - فيتجه نحو الشمس ميمما شطر «جبل الغروب» ويقتحم طريقه من بين «العقاربة» (رجال أشبه بالعقارب) «Scorpion - men» ويعبر بحر الموت. أما «أوت - نابشتيم» فيلقنه أن الناس لا بد من أن يموتوا أجمعين ما عداه هو. لانه مستثنى منهم لظروف شاذة. وعلى الرغم من أنه بعد ذلك يهيء «غلغامش» بفرصة أن يأكل من «شجرة الخلود» فانه يفقد الفرصة. ثم يشفي «أوت - نابشتيم» «غلغامش» من مرض ينزل به عند ما كان يعبر «بحر الموت»، ثم يعود بعد ذلك الى مدينة «إريخ» وفي هذه الاعمال تخيل كيف تنحدر الشمس نحو المغيب الى العالم السفلى عندما تميل نحو «جبل الغروب». كذلك يستحيل على الشمس أن تكسب الخلود وأن تظل أبد الآبدين مشرقة على أرض الأحياء. انها لابد من أن تعبر «بحر الموت» وان تختفي في العالم السفلى. غير أن عودة «غلغامش» إلى «إريخ» تمثل تنفس النهار مرة أخري. وفي هذا معنى الصراع الدائم بين الليل والنهار، والصيف والشتاء. فالظلمة قد تغزو النور، غير أن النور لا بد من أن يبرز منتصرا مرة أخري. والصراع دائم لا نهاية له.

ولقد رأي بعض الثقاه أن في تقسيم القصة الى إثنى عشر لوحا، علاقة باشهر السنة أو بمناطق البروج. ولا يبعد أن يكون لهذا التقسيم علاقة بهذه الفكرة. ولكننا إذ نرى أن تقسيم القصة تقسيما وضعيا في ألواح قلما يتفق مع تقسيم القصة الطبيعى، فالظاهر أن الصيغة الاسترلوجية - (التنجيمية) لهذا التقسيم هى من وضع نساخ - نينوه - Nineveh - الذى يظهر انهم اجهدوا انفسهم كل جهد في سبيل تقسيم القصة على هذه الصورة.

أن أعظم ما فى اسطورة « غلغامش » من الصور الميثولوجية المتنافرة، هى تلك الصورة التى يمثلها « إيبانى » ، وهو الشخصية التى تمثل الانسان البدائى الذي يعيش مع وحوش البرية كواحد منهم. غير أنه على لما يري بعض الثقاة صورة أخري من صور آله الشمس ، قد تقارب فى أهميتها شخصية «غلغامش» نفسه . فهو كبطل « أرك » يرتفع الى الأوج الاعلى من القوة والسلطة منظومة فى سلسلة متتابعة من الانتصارات، ثم يسقط آفلا الى الدنيا السفلى. وهو على ذلك لا يفنى فناء تاما ، او تزول صورته زوالا كاملا ، بل تبقى ذكراه حية فى مخيلة « غلغامش ». وهو فى اللوح الثانى عشر يعود إلى هذه الدنيا ، لا بذاته بل بشبحه « utukku » وتلك مسألة قد يمثل بها لعودة الشمس صبيحة كل يوم، بعد أن تكون قد تردت فى العالم السفلى.

اما الصورة الميثولوجية الاخري فهى الصورة التى تمثل « أوت ـ نابشتيم » وهو « نوح البابلى ». وبينا نجد أن القصص الدائرة حول شخصية « إيبانى » وشخصية « غلغامش » قد تدامجتا بعضهما فى تضاعيف بعض ، وان كان فى مستطاعنا حتى الآن أن نميز بينهما ونفرق بين عناصرهما ، فان اسطورة الطوفان وبطلها « أوت ـ نابشتيم » قد ادخلت فى اللوح الحادي عشر من ألواح القصة كرواية رواها « أوت » نفسه « لغلغامش ». وعند ما يظهر « أوت » لاول مرة على مرسح القصة ، يظهر مزودا بكل صفات الآلهة وقواتهم وسلطانهم ، تلك الاشياء التى خلعها عليه الآلهة جزاء وفائه لهم اثناء الطوفان الذى اغرقت مياهه كل أفراد النوع البشري ماعداه . ويلوح لنا أن المقصود من رواية الطوفان ومزجها بقصة « غلغامش » الاشارة الى البطل الكبير ، بانه لاينجى الانسان من حتفه المحتوم الا ظروف استثنائية ، بل ظروف نادرة جدا فى الحياة.

وفى القصة صور ميثولوجية أخرى بينة المقاصد. منها وقعة «غلغامش» مع المسخ «خومبابا» وحب «إشطار» لغلغامش، والقتال مع الثور المقدس الذي أرسله «عانو» الآله، والبحث وراء شجرة الحياة. وهذه الصور، مهما كان صلها ومهما كان منشؤها، فان الحقيقة انها ادمجت فى قصة «غلغامش» ادماجا. وعلى الرغم من العناصر التاريخية والميثولوجية التى تقع عليها خلال هذه العصور، فان فيها قدرا غير ضئيل من مذاهب بابل الدينية، تظهر بجلاء فى اللوح الحادي عشر (وفيه إشارة الى ان كل الناس لا بد من أن يأتيهم الموت) ولكن ذلك الا نقع له على أثر فى اللوح الثانى عشر حيث يظهر شبح (إيبانى) لغلغامش ويروي له ما يري الموتى المدفونين تحت الثرى من ارهاق، أو أولئك الذين لا يعنى بهم أهلهم بعد موتهم، وزعمه بأن عناية الاحياء بالموتى هى السبيل الأوحد الذي يمكنهم من أن يفلتوا من الآلام المحمضة التى يصادفونها فى العالم السفلى.

أما إذا أردنا أن نمتحن قصة «غلغامش» كما وصلتنا من البقايا المتناثرة التى حفظت فى ألواحها، فانا نجد أن اللوحين الأول والثانى قد شوها تشويهاً كبيراً. وليس لدي المنقبين من بقاياهما إلا قطعا متناثرة غير مجموعة فى مكان واحد، كما أنه يستحيل عليك أن تحكم على تلك القطع، أيها من من اللوح الأول وأيها من اللوح الثانى، كما أنه يتعذر عليك أن تحكم أين ينتهى الأول وأين يبدأ الثانى. وفى قطعة من هذه القطع قد تقع على ما يجعلك تحدس بأنه بدء اللوح الأول؛ إذ يدخل بك فى تصدير يعرفك به مقدار الفائدة التى تجنيها من اطلاعك على محتويات اللوح، معددا لك إياها فى جدول طويل. وبعد ذلك تأتى قطعة أخرى يستحيل عليك أن تعين موضعها من اللوح. وفيها وصف لحصار وقع لمدينة «أرك» غير انك لا تقع فى هذه القطعة على ذكر «غلغامش». وفيها أيضاً وصف مستفيض للآلام والمصائب التي عانتها «أرك» تحت الحصار. واليك شيء من هذا الوصف:

« وطأت الاتن أولادها إلى الحضيض ، وفرت الأبقار صغارها فوق الثري بأقدامها . والرجال يزأرون كالسوائم ، والعذاري ينحن محزونات كالحمائم . لقد تبدلت آلهة « أرك » الشامخة الأسوار إلى ذباب هائم ، يئز بأجنحته فى الطرق والممرات . وأرواح « أرك » الحصينة المسورة ، قد انقلبت أفاعى تنساب فى الجحور . لقد حاصر العدو « أرك » ثلاث سنوات ، والأبواب مغلقة ، والمنافذ مقفلة ، كل هذا « وعشتار » فى سباتها لا ترفع رأسها أمام العدو » .

فاذا صح يوماً من الايام أن هذه القطعة جزء من قصة « غلغامش » ، فانا ولا شك نعجز عن أن نحكم فى « غلغامش » ، أكان صاحب الحصار أم رافعه ؛ أم أن له بهذه المسألة أية علاقة على وجه الاطلاق .

« غلغامش مستبد »

والآن نبدأ فى شرح هذه القصة الشعرية كما تبدأ على بقايا لوح من الألواح يقول فيه بعض ثقاة الباحثين انه بدء اللوح الثانى ، ولكن آخرون يرجحون أنه جزء من اللوح الأول . وفى هذا الطور نجد « غلغامش » يلعب على مرسح القصة دوراً مزدوجاً إذ يظهر كأنه ملك على « إريخ » مستبد بأهلها . على أن مظهر الاستبداد غير جدير ببطل ؛ بل انه ليس من أخلاق الابطال فى شىء . وليس هنالك ذكر لحصار ؛ كما انك لا تعثر على شىء يستدل منه على المصدر الذى جاء منه « غلغامش » ، على الرغم من أن الارجح أنه جاء « أرك » كفاتح غاز . ولدينا على صحة هذا الترجيح دليل هو استبداده بأهل المدينة ، ففي هذا المظهر ريح الفتح والغزو عنوة . فقد سخر الفتيان فى بناء حائط أو جدار عظيم ، واستأثر فى بلاطه بأكثر الفتيات جمالا وأشدهن فتنة . انه ـ « لم يترك الصبي لأبيه ، ولا الفتاة لخطيبها ، ولا الزوجة لزوجها » وفى النهاية فزع أهل المدينة إلى الآلهة من استبداد « غلغامش » ، وصلوا للآلهة

« آرورو » - Aruru - بأن تخلق بطلا شديد البأس قوي الاصلاب يدفع عن ظلامتهم، ويرد عنهم العسف والجور، وأن يكون « لغلغامش » مصدر خوف وخشية فيخفف عنهم، ويروح عليهم شيئا ما، فلا يبطش بهم كل البطش. وضم الآلهة صلواتهم إلى صلوات المظلومين المرهقين استبدادا، وفى النهاية وافقت « آرورو » أن تخلق بطلا يناوي، « غلغامش » . ثم تتصل القصة .

« ولما سمعت الآلهة « آرورو » هذه الكلمات صورت فى ذهنها بطلا يكون على صورة « عانو »، وغسلت « آرورو » يديها؛ وأخذت قطعة من صلصال كالفخار فكسرتها، ثم نبذتها إلى الأرض؛ وبذلك تم خلق البطل « إيبانى » .

ولما تم خلق هذا الشخص ظهر فى صورة رجل متوحش يقطن الجبال والحراش، « فكان كل جسمه مغطى بالشعر الكثيف؛ بل كان مكسوا بشعر طويل كشعر النساء، وكان شعره نامياً قويا كشعر آله القمح؛ ولم يكن يعرف الأرض التى خلق من فوقها؛ ولا الناس الذين هبط عليهم؛ فكسى بأكسية تشابه أكسية آله الحقول؛ ومع الغزلان أكل العشب؛ ومع السوائم أروي عطشه ونقع غلته؛ ومع حشرات الماء رقص قلبه طرباً » .

ولقد عثر على خراطيش وأختام اسطوانية منقوشة مثل فيها « إيبانى » كأنه مسخ - ساتير - له رأس انسان وذراعاه وجسمه؛ وقرنا وحش وأرجله وأذناه. وكما رأينا من قبل نجد هنا أن هذا الرمز إنما يمثل الانسان الحيوانى - البدائى - يسرح مع السوائم فى الحقول والاحراش، وهو على جهل تام بكل ما فى المدينة من طارف وتليد .

خدعة إيبانى :

هنا يدخل فى القصة عنصر جديد، هو عبارة عن شخصية « تسايدو »

-Tsaidu- القناص،و يرجح أن هذه الشخصية قد سخرتها الآلهة لتتم اللقاء بين « غلغامش » و« ايانى » . أما كيف قابل ايانى لأول مرة فليس بظاهر لتشوه كبير واقع فى اللوح الأصلى . وقد قرأ البعض هـذه القطعة المشوهة فقالوا بأنهاتودى معنى ان ملك « أرك » لما علم بالمؤامرة التى دبرها الآلهـة لـكى ينزلوه عن عرشه ،أرسل « تسايدو » ليجوب في أنحاء الجبال والوديان باحثاً عن « ايانى » وقد حضه على أن يحيط به بكل الوسائل و يأتى به مكبلا فى الأغلال الى مدينة « أرك » . وقرأ البعض هذه القطعة فرجح عندهم أن اللقاء كان اتفاقا ، ومهما يكن من هـذا الأمر ، فان « تسايدو » رجع الى « إرخ » وقص على « غلغامش » نتيجة تجاربه مع « إيانى » ، وذكر له قوة الرجل المتوحش البالغة ،وسرعته فى العدو وقطع المسافات البعيـدة فى أقرب حين ، وكذلك أخبره عن الخجل الشديد الذى يتولاه عنـدما يلتقي بأحد من أبناء النوع البشري ؛ ومن الجلى أن « غلغامش » لا بدمن أن يكون قد تأكد من السبب الذى أرسـل الآلهـة من أجله « ايانى » فيحاول أن يفسد ما صمم عليه الآلهة بأن يلتقي شخصيا بالرجل المتوحش ، وأن يضع لهذا اللقاء تصميما ؛ فيأمر « تسايدو » بأن يعود الى الجبال وأن يأخذ معه « أوخوت » ، وهى احدى الفتيات المقدسات التابعات لهيكل « عشتار » . أما غرضه فكان أن تلتقي « أوخوت » به وتتمكن بأخاديعها أن تأتى به الى « أرك » . وعلى هذا يخرج القناص والفتاة . وتمضى القصة:

« يسلكان الطريق المستقيم من غير أن ينعطفا يمنـة أو يسرة ؛ وفى اليوم الثالث يصلان الى المكان الذى اعتاد « ايانى » أن يشرب منـه ويستخفى « تسايدو » والفتـاة ، ويظلان حيث هما يوما ثم يومين ، على مقربة من مكان الاستسقاء ، ثم يقدم « إيانى »

وهنا تمضى القصة فى وصف طويل للقاء بين « إيانى وأوخوت » ، ولم تجد«أوخوت»من صعوبة فى أن تجذب ايانى اليها بجمالها الفتان . وظل «ايانى»

ستة أيام وثمان ليال لا يتذكر شيئا ولا يعرف شيئا من أخذته الاولى التي أخذها بجمال « أوخوت » وحبها الذي تملك كل قلبه . وبعد أن عاد إلى رشده تفقد غزلانه وقطعانه التي كانت تتبعه أينما سار ؛ فوجد أنها لا تتبعه كما كانت تتبعه أولا ، فخر يأسا تحت قدمي « أوخوت » ، وهنا تخبره عن مدينة إريخ وعن ملكها

« إنك جميل يا إيباني ! إنك أشبه بالآلهة ! لماذا تبقى في الوديان تذرعها مع وحوش البرية وسوائمها ؟ تعال معي ، فاني سأقودك الى « أرك » الحصينة ذات الأسوار القوية ، الى القصر اللامع ، مقر « عانو » و « عشتار » ، الى قصر « غلغامش » الكامل القوة ، والذي يخضع البشر بقوته العظمى ، كما يخضعهم ثور الجبال »

ووجد « ايباني » في كلام « أوخوت » حلاوة وقصداً محببا ، فرغب في صداقة « غلغامش » وصارحه انه راغب في أن يتبع الفتاة الى مدينة « إريخ » وبذلك بدأت رحلة « تسايدو وإيباني وأوخوت » الى المدينة

« غلغامش يلتقي بإيباني »

وكان عيد « عشتار » قائماً عندما وصلوا إلى « أرك » ؛ ولقد سبق ألى وهم « إيباني » أنه لا بد من أن يشتبك في معركة مع « غلغامش » قبل أن يفوز بصداقة هذا البطل ، غير أنه أنذر (ولا ندري ان كان الانذار قد أتاه من طريق الرؤيا أو من طريق أوخوت) بأن « غلغامش » أقوي منه ، وانه فوق ذلك صفي الآلهة ، فرجع عن فكرة العراك . حدث ذلك في الوقت الذي رأي فيه « غلغامش » رؤيا فسرتها له أمه « ريمات-بليت » -Rimat - belit- بأنها تدل على قدوم « إيباني » . أما الجزء الذي يروي لقاء غلغامش وإيباني ؛ فمع الاسف مفقود ؛ غير اننا نعرف من القطع التي نستمد منها القصة بأنهما تلاقيا وتصاحبا .

والظاهر أن الاجزاء التالية لهذه من القصة تابعة للوح الثاني . وفيها

نجد « إيانى » حزيناً كئيباً يندب حريته الاولى و ينحى باللائمة على فتاة المعبد التى أغوته على أن يأتى إلى المدينة . على أية حال نجد أن « شاماش » - آله الشمس - يتدخل فى الامر (و الظاهر أن هذا التدخل كان من طريق رؤيا - فان الاحلام تلعب دورا هاماً فى كل أجزاء القصة) و يظهر « لايانى » كل الفوائد التى جناها من قدومه و التحاقه بالمدينة و أهلها ، ويجتهد بالترغيب و التمنى أن يحمله على البقاء فى « أرك » - فيقول :

« هذا غلغامش صديقك وأخوك سيعطيك عربة عظيمة لتنام فيها مهيأة بكل المعدات الضرورية ، وسيخصص لك مقعدا عن شماله ، وتقبل ملوك الارض قدميك » .

فيقتنع « إيانى » فى الظاهر ، ويكف عن الشكوي من محيطه الجديد ؛ ويخضع راضيا عما سبق له فى القدر .

أما الاجزاء الباقية من اجزاء اللوح فتظهره لنا مشغولا بحلم آخر . و فى نهاية هذا الجزء من القصة نجد البطلان قد صمما على القيام بحملة ضد المسخ « خومبابا » ، حارس موطن الآلهة « إرنينا » « Irnina » (وهى صورة من عشتار) فى غابة السيدر .

وفى اللوح الثالث ؛ رغم تشوهه الكبير ، يظهر البطلان وقد ذهبا لاستشارة « ريمات — بليت » أم « غلغامش » ومنها يطلبان الحماية من « شاماش » فى حملتهما التى أزمعا عليها . فتنصح الراهبة العجوز ولدها وصاحبه عن الطريق التى يسلكان ، وترفع يديها الى آله الشمس و تطلب منه العون « لغلغامش » .

« لماذا انزلت الاضطراب على قلب ولدي « غلغامش » ؟ استأثرت به ؛ وسوف يذهب بعيدا فى سياحة طويلة الى حيث يقطن « خومبابا » ، ولسوف يشتبك معه فى معركة ليس يعرف ماذا ستكون نتيجتها ، وسيسلك طريقاً لم يعرفها . فحتى يصلك وحتى يعود ، وحتى يغشى غابة السيدر ، وحتى يقتل المسخ « خومبابا » الفظيع و يطهر الأرض من الارجاس التى تكرهها ، وحتى يوم رجوعه الى

أجعل عين « آيا » - Aya - صفيتك توجهه اليك على الدوام » .

وهنا ينتهي هذا الدعاء المملوء حرارة ، الفائض بالروعة والجلال .

المسخ خومبابا

في اللوح الرابع وصف للمسخ الذي كان البطلان على وشك مقاتلته . فان «خومبابا» Khumbaba» الذي أقامه الآله «بعل» - Bel - على حراسة شجرة « السيدر » - وهي شجرة معينة من السيدر اكثر ارتفاعا وتقديسا من بقية أشجار الغابة - لخلق في البشاعة وقبح المنظر قائما برأسه . وكان مجرد وجوده في الغابة يصيب الذين يلجونها من غير أن يروه بالضعف وانحطاط القوي . ولما يدنو منه البطلان يشكو « إيباني » ضعفا يحسه في يديه وارتخاء في ساعديه غير ان « غلغامش » يستحثه بكلمات التشجيع .

وليلاحظ هنا أن اسم « خومبابا » من أصـل « عيلامي » - Elamite - نسبة الى القبيلة المعروفة . وهذه الحقيقة قد ساقت بعض الباحثين الى القول بانه المسخ واحد مع اسرة « عيلامية » قديمة كانت قد استقوت على مدينة « أرك » وحكمتها ؛ وان هذه الاسرة قد اختفت آثارها التاريخية منذ سنة ٢٢٥٠ ق.م . على أنه من الصعب ، ان لم يكن من المتعذر ؛ أن تستكشف العلاقة الواقعة بين قصص ميثولوجي ، وحقيقة تاريخه محدودة الحوادث . غير أن اقصى ما يمكن الاستدلال عليه من مثل هذه الحقيقة : هو وجود نزاع أو عداء بين «عيلام» و « بابل » .

٠٠٠

فاذا انتقلنا الى الاجزاء التالية من الألواح ، كنا في اللوح الخامس . فان البطلين وقد وصلا إلى جبل مخضوضر خصيب يجلسان في هدوء ليلقيا بنظرة على « غابة السيدر » . ولما يلجان الغابة يحلم أحدهما أو كلاهما بمقتل « خومبابا » ولذلك يقدمان إلى العراك مسرعين . غير أنه من الأسف لم يبق من اللوح

تلك القطع التى تصف صورة المعركة. اما مقتل « خومبابا » فيستدل عليه من الالواح التالية.

عشتار وحبها لغلغامش

فى اللوح السادس الذي يروي قصة حب عشتار « لغلغامش » ؛ وقتل الثور المقدس؛ يلازم الانتصار البطلين. غيرانا فى الوقت ذاته نقع على الأسباب التى تعزو إليها هذه الخرافة سر ما يلقيان من النحس وسوء الطالع. فنجد أن غلغامش ؛ بعد أن يقتل «خومبابا» ، ويقفل عائدا الى «أرك» ؛ يذيع صيته ويرتفع ذكره. ولذا ينبذ الثياب الملطخة بالوحول المجللة بدماء فريسته؛ ويرتدي ثياباً لا يرتديها الا الملوك الفاتحين. وتقع عليه عينا « عشتار » وتراه فى أبهة الملك وعظمة السلطان ، وزهرات الانتصار تزين جبينه وتكلل رأسه ؛ فيلتهب قلبها حباً وتهيم به غراما. وبكلمات ملئى حرارة وعاطفة ، تمت اليه أن يكون بعلها ، وتعده بأنه اذا دخل منزلها - حيث يقوم فى جوف غابة السدر المظلم - فانها سوف تفعمه بعطاياها وتبهره بهباتها ؛ وأن قطعانه سوف تزيد وان خيوله وثيرانه سوف لا يكون لها نظير ، وان نهر الفرات سوف يقبل رجليه ويخضع له ، وان الملوك والامراء سوف يخضعون له ويقدمون له الأتاوات . غير أن « علغامش » ، وكان يعرف شيئا عن تاريخ هذه الآلهة المملوءة بالشهوة المشبوبة بالعاطفة ، قد رفض حبها باحتقار ، وبدأ يهمس بها سراً وعلناً . ولقد ذكرها بما فعلت مع غيره ممن احبوها من قبل . ذكرها « بتموز » « Tammuz » زوج صباها ، وكانت قد علقته وبكت من أجله السنين الطوال . وذكرها « بعالالو » « Alalu » النسر الكاسر وذكرها بالراعى « طابولو » « Tabulu » « وإزولانو » « Isullanu » بستانى أبيها . فانها قد سخرت من هؤلاء جميعا وأساءت معاملتهم بصورة لم يسبقها أحد إليها قسوة وصلابة قلب ، وأظهر لها خوفه من يكون نصيبه منها كنصيب هؤلاء ، لو

انه مد إلى الآلهة الماكرة بالوئام يداه ؛ أو وهب لها بالحب قلبه . غير أن الآلهة قد هاجها الغضب لرفض حبها ، فارتفعت إلى السماء .

ووقفت « عشتار » أمام « عانو » « Anu » أباها ؛ وأمام « عانو » قالت « أيها الوالد الرحيم : إن غلغامش ؛ يلحظنى أينما سرت . أنهعدزهرات تاجى الآلهى » .

ومن حول رواية حب عشتار « لغلغامش » تقوم أسطورة طبيعية ، يغلب أن تكون أسطورة ذات علاقة بفيض ربيعى . فان « غلغامش » آله الشمس ؛ أو البطل الذي اختص بالصفات التى يختص بها آله الشمس ، قد تعشقته « عشتار » آلهة الحب ، الآلهة الأم العظيمة ، التى تتعهد برعايتها منتوجات الربيع الجميلة . فاننا إذا رجعنا إلى حوادثها الغرامية الأولى نقع على قصة « تموز » الخرافية ، التى تقتل فيها « عشتار » حبيب قلبها وصفيها « تموز » ، مشفوعة بقليل من الروايات الميثولوجية المتناثرة المتدابرة . ولا يبعد أن يكون لهذه الاسطورة اعتبارات تنجيمية ـ استرلوغية ـ فى هذه المرحلة من القصة الكبري .

«ثور عالو»

ولنرجع إلى سياق القصة . فان « عشتار » فى غضبها وسخطها تلجأ إلى « عانو » « Anu » أبيها ، « وعاناتو » « Anatu » أمها ، متوسلة إلى الاول أن يخلق ثوراً شديد القوي ذا مرة ، وأن يرسل به للقاء « غلغامش » . فيرفض « عانو » فى البدء طلب ابنته قائلا إنه لو فعل هذا أصاب القحط والجدب الارض سبع سنين . غير أنه يرضى فى النهاية ؛ ويرسل ضد « غلغامش » بثور عظيم اسمه « عالو » - Alu -

أما الجزء الذي يعالج وصف المعركة فى الالواح فشوه تشويهاً كبيرا . غير أن الظاهر أن المعركة كانت حامية الوطيس ، يخر فى نهايتها الثور

السماوي صريعا بضربة سيف من يد « غلغامش » . وتتطلع « عشتار » فى النهاية غاضبة حانقة :

فتذهب « عشتار » وتتسلق أسوار « أرك » الحصينة . وهنالك بعد أن ترتقي أعلى قمة من الاسوار ترسل لعنة من لعناتها الابدية قائلة - «لتكن ملعونا يا غلغامش ، أنت يامن أثرت فى قلبي الغضب ، ويامن قتل الثور الذي أرسلته السماء » .

حينذاك يسمع إيبانى لعنات الآلهة الغاضبة :

« ولما سمع إيبانى هذه الكلمات التى تفوهت بها « عشتار » قطع أوشاج الثور إربا إربا ورمى بها أمامها قائلا :

« كما غزوته وقهرته سوف أقهرك ، وسأفعل بك مثل ما فعلت به » .

فتملك الغضب « عشتار » وبلغ منها الحنق كل مبلغ . أما غلغامش ورفيقه فقد أهديا آلهة الشمس قرنى الثور العظيمين ؛ وبعدأن غسلا يديهما فى نهر الفرات قفلا راجعين إلى « أرك »

وخرج الناس يحيون البطلين كلما مر بطرق من أطراف المدينة موكب استقبالهما .

أما بقية اللوح فيصف مأدبه أقامها غلغامش ليحيي بها ذكري انتصاره على الثور « عانو » ويتلو ذلك ذكر بعض أحلام يرويها « ايبانى »

أما اللوحان السابع والثامن فقطع وأجزاء ، وما حفظ منهما يفتح للوهم والرجم بالغيب فى قراءتهما مجالا واسعا . وليس من البعيد أن يكون اللوح السابع متضمناً وصفا للعالم السفلى كما رواه « ايبانى » عن غادة الهيكل « أوخوت » - Ukhut - وقدخيل له فى حلم من أحلامه الكثيرة. وقد لعن « إيبانى » هذه الغادة فى أحد الألواح ، ولذلك عجل به القضاء إلى الموت .

ووصف الارض السفلى فى هذا اللوح ، يشابه وصفاً آخر روى فى أصل

آخر من الاصول الميثولوجية القديمة عن هبوط الآلهة « عشتار » إلى « حادس » - Hades - وفى الروايتين دلالة على المعتقد القديم فى الارض السفلى .

« تعال ، وأنزل معى إلى بيت الظلام ، حيث يسكن « اركلا » « Irkalla » إلى البيت الذي لايذهب داخله إلى مكان آخر ، (أو يسلك منه إلى مسلك غيره) إلى الطريق الذي لا عودة منه ، إلى البيت الذي حرم ساكنوه من الضياء والنور ؛ حيث التراب غذاؤهم ؛ والارض لذتهم . إنهم يكتسون كالطيور بالريش . انهم لايرون النور . انهم يعيشون فى الظلام » .

موت إيبانى

ان هذا الحلم المزعج كان مقدمة ظهر منها أن موت « إيبانى » قريب . ولم يمض على الرؤيا زمان قصير حتى مرض « إيبانى » ثم مات بعد ذلك باثنى عشر يوماً من ابتداء مرضه . أما طريقة موته فغير بينة فى الالواح . فان احدي القراءات التى قرئت بها الالواح المهشمة تظهر أن « إيبانى » جرح والارجح أن يكون فى وقعة حربية ، وأنه مات متأثراً بجرحه هذا . وهنالك قراءة أخري تظهره يقول لصديقه « غلغامش » :

« لقد لعنت ياصديقي ؛ ولذا سوف لا أموت ميتة من يخر فى ساحة الحرب قتيلا » .

والسبب في اختلاف القارئين راجع إلى تهشيم الالواح وتشويهها تشويهاً كبيراً . والراجح أن تكون القراءة الأخيرة هى الاصح . وهذا رأي الباحث « لويس سبنس » الانجليزى . فان « إيبانى » قد أغضب « عشتار » قادرة القادرات ، ولا يبعد أن تكون اللعنة التى أسكنته الارض وأوردته موارد الدمار هى لعنتها . وبموت « إيبانى » ينتهى اللوح الثامن .

أما اللوح التاسع فكله وصف لحزن « غلغامش » على موت صديقه وفيه الحميم

نزل فى قلب « غلغامش » الخوف من الموت ، فصمم على أن يذهب باحثاً وراء أحد أسلافه « أوت ـ نابشتيم » فقد يمكن أن يصف له طريقاً يخلصه من براثن الموت الذى لا بد من أن ينشب فيه اظفاره يوماً من الايام. وأشفع الفكر بالعمل ، وسرعان ما خرج ميمما شطر المكان الذي كان يعيش فيه « أوت - نابشتيم » . وكان لا بد من أن يقطع فى طريقه مفاوز جبلية موحشة ؛ تسكنها الوحوش الضوارى . ولقد حماه من شر هذه الضوارى آله القمر « سين » « Sin » فساعده ذلك على أن يقطع تلك المفاوز فى أمن وأن يصل إلى نهايتها سالما .

وبعد ذلك وصل إلى جبل أكثر ارتفاعا من كل الجبال التى مر بها ؛ ووجد أن مدخل الجبل محروس بأناس « عقاربة » . وكان هذا جبل « ماشو » « Mashu » أي جبل « الغروب » (جبل غروب الشمس) وقد استوى فى نهاية الافق الغربى فاصلا بين الارض العليا والارض السفلى .

« ووصل فى النهاية إلى جبل « ماشو » الذى تحرس مداخله مسوخ مريعة ، تصل ظهورها إلى مواقع السحاب ؛ وتذهب أعضاؤها الامامية إلى ما بعد « آرالو » « Aralu » وعلى الباب أناس « عقاربة » يحرسونه . أما منظرهم فرعب رهيب ، وأما لمسهم ففيه الموت المحتوم . أما عددهم فكبير ؛ لانهم يغشون كل الجبال . وهم يظلون يلحظون الشمس من ساعة شروقها إلى مغيبها . ولما رآهم « غلغامش » اسود وجهه خوفا وفزعا ، وأفقدته بشاعة منظرهم كل حواسه، فخر صريعا .

ولما أراد « غلغامش » أن يلج مدخل الجبل وجد طريقه مسدوداً بهؤلاء العقاربة الذين لما رأووا لمحة الالوهة موسومة على محياه ، لم يحدجوه بنظراتهم المخيفة القاتلة ، بل سألوه عن غرضه ، والسبب فى مجيئه ، والدنو من

جبل « ماشو » و لما أجابهم على أسئلتهم و أخبرهم أنه يريد الوصول مقر سلفه العظيم « أوت ـ نابشتيم » ليعرف منه سر الخلود و الشباب ، نصحه العقاربة بأن يرجع عن عزمه . فقد ذكروا له أن أمامه وادي الظلام الذى لا يمكن أن يقطعه فى أقل من أربعة وعشرين ساعة « ١٢ كاسبو » « 12 Kasbu » قبل أن يخرج إلى النور مرة أخرى . و رفضوا أن يسمحوا له بالدخول. غير أن «غلغامش » توسل اليهم بدموعه، وبعد لأى، قبل المسوخ أن يأذنوا له في الدخول . و لما جاوز « غلغامش » باب جبل « الغروب » (بفضل كونه أحد آلهة الشمس) دخل فى واد مشتد الظلام عظيم الحلكة ، وظل يضرب فى مفاوزه « ١٢ كاسبو » « 12 Kasbu » أربعة وعشرين ساعة . ولما شارف نهاية هذا الوادي أخذ الظلام يقل رويداً رويداً حتي خرج إلى وضح النهار ؛ فوجد نفسة فى حديقة غناء واسعة الارجاء ، التفت أشجارها ودفقت مياهها ، ومن بين أشجارها شجرة الآلهة ، التى وصفت في المتن الاصلى بما يلى :

« تحمل الاحجار الكريمة بدل الثمار ؛ وقد تدلت فروعها وأغصانها على أجمل نظام رأته عين . وقد ثقلت بالأثمار التى تخطف البصر إذا حدق فيها الناظر » .

و بعد أن ملأ « غلغامش » ناظريه من جمال الحديقة ، انطلق يطلب الشاطئ .

و يصف اللوح العاشر اتصال البطل بآلهة البحر « سابيتو » « Sabitu » وكان من عاداتها إذا قدم أحد عليه مظاهر الألوهة ، و فى قلبه حزن ، وظهر كأنه قد أنهكته الأسفار ، دخلت قصرها وجرت وراءها رتاج الباب . غير أن « غلغامش » وهو يعلم أنه فى حاجة الى مساعدتها لكى يصل الى مقر « أوت-نابشتيم » أخبرها خبره وهددها يأساً بأن يقتحم عليها باب القصر اذا

لم تفتحه . وبعد لأى رضيت « سايتو » أن تنصت له طالباً منها أن تدله على طريق « أوت-نابشتيم » . وكان شأن هذه الآلهة معه كشأن العقاربة إذ رأت أنه لن ينفـك عن غرضه ، فأمرته أن يذهب الى « آداد — إيا » **Adad-Ea** ملاح « أوت-نابشتيم » الذى لا يمكن بغير معاونته أن يتقـدم « غلغامش » خطوة واحدة فى سياحته القصية . ولما لاقى « غلغامش » « آداد — إيا » نصحه أن يرجع . ولكن البطل كان على تصميمه وعناده ، فبدأ يحطم سفينة الملاح بفأسه ، فاضطر الملاح أن ينفذ رغبة « غلغامش » فأرسل مساعده الى الغابة ليحضر اليه ما يصلح به سفينته ، وبعد اصلاحها سافرا معاً .

غلغامش وأوت نابشتيم «١٠»

ولقد أخذ « أوت-نابشتيم » العجب عند ما رأى « غلغامش » قادماً اليه. أما البطل « غلغامش » فكان قد أصيب بمرض عضال بحيث أصبح غير قادر على أن يغادر السفينة . غير أنه أفضى الى « أوت - نابشتيم » المؤله — وكان على الشاطىء منتظراً — برغبته فى أن يعرف السر فى الحصول على الحياة الخالدة . غير أن بطل الطوفان كان حزيناً حزناً عميقاً . فقال له « إن الموت هو الكأس الدائر على شفاه بنى الانسان - » وكذلك لم يعط الانسان من الكفايات ما يدرك بها الساعة التي سوف تظلله فيها ظلال الموت . إن « الانونا كى » **Annunaki** - أي كبار الآلهة - هم الذين يحددون الاقدار . ومعهم « ماميتوم » **Mammetum** «موزع الحظوظ» . فهم الذين يقدرون الموت والحياة . غير أن ساعات الموت غير معروفة »

وتمتد القصة إلى اللوح الحادي عشر من غير اضطراب أو تهويش . وفيما يصغى « غلغامش » ، مملوءاً شكا ، إلى أقوال سلفه العظيم .

« انى أري « يأوت- نابشتم » أن مظهرك لا تختلف عن مظهرى : فانك

مثلى ، لا تباينني في أى شيء . وان فنك ليشابه في ، وقلبك يتحرق للقتال ....
فكيف بك قد دخلت حظيرة الآلهة .... كيف وقعت على سر الحياة .... »

أسطورة الطوفان

ردا على هذه الاسئلة يروي « أوت-نابشتيم » أسطورة الطوفان البابلى .
وهى أسطورة إذا رويت وحدها كونت قصة مستقلة عن قصة « غلغامش »
بل هى أسطورة ميثولوجية كبيرة الخطر عميقة المغزي .

ان نذير الطوفان قد غشى « أوت-نابشتيم » فى حلم من الاحلام . سمع
صوت الآله يقول :

« أنت يارجل « شورياق » « Shurippak » يابن « أو بارا-توتو »
« Ubara - tutu » حطم بيتك وأغفل متاعك وملكك وأنج بحياتك .
اترك امتعتك ونج حياتك واجمع من كل بزرة حية من كل نوع وأدخل
بها فى الفلك » .

أما السفينة فكان لا بد من أن تصمم وتبني بكل عناية بارشاد « إيا »
« Ea » وتعاليمه. ولما تكلم الآله أنذر «أوت-نابشتيم» الطاعة لأوامره القدسية.
غير أنه كان فى حيرة مما يجيب به الناس إذا سألوه عن السر فى ما يتخذ من
أهبة . فألهمه « إيا » بما يجيب به إذا سئل .

« ان « بعلا » - « Bel » طردنى لانه يبغضنى »

أما الغرض من هذا الجواب فكان ظاهرا جليا . غير أن الاسطر التي
تاتى بعد ذلك فى اللوح وهى التى تكمل الكلام فناقصة مبتورة .

أما غرض « إيا » مما الهم به « أوت - نابشتيم » ان يصرف الناس عن
الشك فى أمر الفلك بأن يعرفوا أن « أوتا » انما يبنى الفلك ليستطيع
بعد بنائه الهرب من غضب « بعل » الذى سوف يحل به وحده اذا هو لم ينج
بنفسه . وانه من الواجب عليه أن يتنبأ للناس بتهطال المطر ، غير انه يوحى

اليهم أن تهطاله علامة خير و بركة سوف ينزلها « بعل » على أهل «شور يباك» لان « أوت نابشتيم » سوف يفارقهم .

الفلك البابلي

واستخدم « أوت نابشتيم » كثيراً من الا يدي فى تشييد الفلك . وفي أربعة أيام جمع المواد و أقام بنـاء السفينة ، و فى اليوم الخامس عومها ، و فى اليوم السادس شحنها ؛ وكانت على استعداد فى اليوم السابع . وعلى بدن السفينة التى كانت تبلغ مائة وعشرين ذراعاً (**120 Cubits**) (١) بنى الظهر (٢) من ست طبقات ارتفاعها مائة وعشرين ذراعاً (**Cubits**) قسمت كل منها الى تسع حجرات . وجعل ظاهر السفينة محكما حتى لا ينفد منه الماء إذ طلاها بالقار ، كما طلى داخلها بمادة أخري . ولأجل أن يعلن « أوت- نابشتيم » عن اتمام العمل فى السفينة أقام مهرجاناً عظيما : كمثـل المهرجانات التى تقام عادة عند استهلال السنة الجديدة : فذبح الثيران ، وجهز كميات كبيرة من الخمر والزيت . وخضوعاً لأمر « إيا » أحضر « أوت-نابشتيم » الى السفينة كل ما يملك من ذهب وفضة ؛ ثم من كل بزرة حية ؛ وكذلك كل أسرته وأدواته المنزليـة ؛ ومن كل مواشى البر ووحوشه ؛ ورجال الفنون الذين كانوا يعملون معه .

وكان تهطال المطر اشارة « لأوت » لكى يدخل الفلك وأن يغلق عليه الباب . ولقد استمر المطر يهطل طول الليل وعند الفجر . ظهرت فى الأفق غيامة سوداء . وفى وسطها « رامان » (**Ramman**) يرسل الرعود ، وقد تقدمه « نابو » - **Nabu** - « ومردخ » - **Marduk** - مارين كروسلين ؛ يجوبان الجبال والسهول . وأرسل « أراجال » - **Uragal** -

---

١ — مقاس معروف يعتبر من أول المفصل الاوسط الى طرف الأصبع الوسطى

٢ — فى النص العبرانى « سوهر » وهو فى المراجع ظهر ، وكذلك فى الرواية الكلدانية ، لا كما ذكر فى التوراة العبرية فانه خطأ ظاهر .

الاشارة السماوية : ومضى « نينيب » - **Ninib** - يشق الأفق ويرسل الرياح والانواء تتفجر تفجرا . وحمل « أنوناكى » - **Unaunaki** - مشاعل موقدة ؛ كانت أضواؤها تشعل الارض لشدتها ناراً . أما الاعاصير فكان يرسلها « رامان » - **Ramman** - فتصعد من الارض إلى عنان السماء فحجبت الضوء والنور وخيم على الارض ظلام دامس .

واستمر الظلام والفوضى يسودان الارض يوماً كاملا . وعجز الناس عن أن يرى بعضهم بعضاً . ولقد كان الفزع شديدا حتى أن الآلهة فى السماء تملكهم الخوف ونزل بقلوبهم الفزع الشديد ؛ فكانوا « ككلاب الصيد » يكون حيارى آسفين على أنهم اشتركوا في تخريب الارض وأخذوا بضلع فى افناء النوع البشرى .

واستمرت الانواء ستة أيام وست ليال حسوماً ، وانقطع المطر عن التهطال فى اليوم السابع وبدأ الطوفان يتناقض . ثم يقول « أوت نابشتيم » :

« نظرت فى البحر وصرخت بكل ما فى من قوة صرخة فزع وحسرة لأنى رأيت أن كل النوع البشرى قد تحول إلى رماد - « صلصال كالفخار » **Clay** - وتبدلت الحقول الغضة إلى أحراش وضحاضح . وفتحت النافذة فوقع الضوء على وجنتى ؛ غير انى نزلت من النافذة إلى ظهر السفينة ؛ ثم وقعت صعقاً أبكى مر البكاء . وعلى وجنتى جرت شؤونى هتانة فائضة ، إذ نظرت إلى الدنيا فما وجدتها إلا بحراخضما متلاطم الامواج » .

وفى النهاية استوت السفينة على قمة جبل « نتسير » - **Nitsir** - وهنا يختلف الارخيولوجيون فى قراءة الالواح . ففي قراءة منها تسمع - « أنه بعد اثنى عشر يوماً ظهرت الارض » . وفى أخرى نجد أنه « بعد مسافة (١٢ كاسبو) ظهرت اليابسة » وفى أخري أن الأرض ظهرت بارتفاع اثني عشر

ذراعا (Cubits) فوق الماء . ومهما يكن من هذا الامر ؛ فان السفينة ظلت ستة أيام فوق قمة الجبل ، وفى اليوم السابع أطلق « أوت - نابشتيم » حمامة . غير أن الحمامة لم تجد موضع قدم تقف فيه ؛ فرجعت إلى السفينة . فارسل خطافا ،فرجع اليه ثانية ؛ إذ لم يجد مكانا يستقر فيه . وأخيراً أرسل غرابا. ولما كان الوقت قد حان لان تنحسر المياه من فوق الأرض ، اقترب الطائر من السفينة وظل ينعق متهادياً مترنحا ولكنه لم يدخل اليها . وعندئذ احضر « اوت- نابشتيم » أهل بيته وكل أمتعته الى الفضاء وقدم الى الآلهة قربانا من حطب وخشب السيدر وعطر البخور . وارتفعت رائحة العطر الى مقر الآلهة فاجتمعوا « كالذباب » - على ماتصفهم الرواية - من حول القربان . وكان من بين الآلهة « عشتار » سيدة الآلهة ، فرفعت عقدها الثمين الذى أعطاه لها « عانو » وقالت

«ما هذه الآلهة ! قسما بما حول عنقي من لآلئ « لابيز لازولى » -lapis-lazuli- وجواهره،لانى أبدا ولأحملن ذكرى هذه الأيام فى نفسى ، ولا أنساها أبدالدهر .ليحضر الآلهة الى القربان ، ما عدا«بعلا»فانه لن يحضر، لانه رفض أن يستشير الآلهة وارسل على الأرض الطوفان ، واسلم بكل شعبي الى الدمار.»

ولقدغضب « بعل » اشد الغضب عند ماعرف أن بقية من الانسان لا تزال حية فوق الأرض ، واراد أن يهلك أوت -نابشتيم واهله . غيرأن «إيا» صرفته عن عزمه ودافعت عن صفيها « أوت » ، لأنه لم يستشر الآلهة عند ما أمر بحدوث الطوفان العام وافناء الاحياء ، ونصحت اليه بأن لا يعاقب الا المذنبين بذنوبهم دون بنى الانسان في مجموعهم . وأخيراً اقتنع « بعل » . فجاء الى سفينة « أوت » التى كانت تحمل البقية الباقية من النوع البشرى ، وأخذ يد « أوت - نابشتيم » وزوجه وقادهما الى العراء خارج السفينة

حيث انعم عليهما وحباهما البركة . ثم يقول « أوت » :

« ثم قادوني بعيداً الى مصب احد الانهار ، وأمروني بأن اعيش هناك »

° ° °

هذه هي القصة التي رواها أوت نابشتيم « للبطل غلغامش » . ولا يظهر للمطلع على القصة سبباً في افناء النوع البشرى اللهم الا العداء الذي استحكم بين البشر وبين الآلهة . وعلى الاخص بين أبطال بني الانسان وبين الآله المحارب « بعل » الكبير . ولكن يظهر بجلاء من سياق القصة ان « مجمع الآلهة » قد قرر تخريب مدينة « شوريباك » وحدها ، وانه لم يوافق على افناء النوع البشري . ولا مراء مطلقا فى أن هذه القصة عبارة عن اسطورتين تداجتامعاً على مر الزمان ، ثم اصبحتا من بعد قصة واحدة تدور حول بطلين أولهما غلغامش بطل « أرك » ، وأوت- نابشتيم سلفه العظيم : الذى رفعته الآلهة الى مصافهم .

ومما يدل واضح الدلالة على قدم هذه القصة ان الباحثين قد عثروا على لوح بجوار قرية ابي حيه -« مدينة سيبار » Sippar قديماً- يرجع تاريخه الى ٢١٠٠ ق . م .

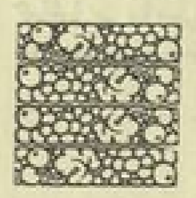
وعلى الرغم من أن هذا اللوح مشوه تشويها كبيراً ، فليس من الصعب ان تستدل من قراءته على مشابهات تعرف منها اواصر العلاقة بين الرواية التي تروى فيه ، وبين قصة « غولغامش » .

ولقد ذكر « بروسوس » . -Berossus- ترجمة لاسطورة الطوفان فى تاريخه المعروف ، وقد تبدل فيها اسم « إيا » باسم « كرونوس » Chronos « وأوت- نابشتيم » بالملك « اكزيسوتروس » -Xisuthros- ومدينة شوريباك

بمدينة « سيبار » . (١) وفى هذه الرواية لا يمنح الخلود للملك وزوجه وحدهما، بل لابنته وملاحه أيضا .

٥٥٥

الى هنا نصل الى الحد الذى لا يجب علينا أن نتعداه . فلا شجرة الحياة التى أخذها غولغامش وسرقها منه الافعوان فى الطريق ؛ ولا طلبه الخلود من « أوت» ؛ ولا وصوله الى « أرك »مرة ثانية ، بمفيد لنا فى سياق هذه القصة شيئا ولا هو بضرورى لسياق البحث . اما الذى حدى بنا الى ذكر هذه الاسطورة بالتطويل فضرورة سوف تظهر في خلال ما سوف نمضى فيه من بحوث .



١ — يظهر أن القصة التى نقلها العلامة سايس فى آخر كتابه — **Early Israel** — قد اعتمد فيها على هذا اللوح لان سياقها يخالف هذه القصة ويذكر فيها اسم الملك « اكزيسوتروس » بدل — أوت نابشتيم — وكنا قد ذهبنا من قبل فى مجلة العصور الى القول باحتمال الاختلاف فى قراءة الاسماء فلما عثرنا على هذا النص لزمنا ايراده هنا بيانا للحقيقة . أما الاستاذ مكنزى فيغير اسم (أوت) باسم (پير) **- Pir -** .

مقارنات

مقارنات

اقتصرنا فى الصفحات السابقة على التقديم لهذه الرسالة وعلى شرح الاوليات الضرورية التى هى بمثابة أساس لما سوف نمضى فيه من مقارنات. على أنى آمل أن أجد من اتساع صدر القراء لهذه الرسالة وتقبلهم اياها، ما يشجعنى على المضى في وضع غيرها من الرسائل المماثلة لها، وعلى الأخص فى الاسس الاعتقادية البحتة التى قامت عليها النصرانية منتحلة من قصة موسى ومن تاريخ العبرانيين منذ هبوطهم مصر الى دخولهم أرض الميعاد. فانى أعتقد اليوم، وبعد أن استعمقت في قراءة تاريخ موسى، أن النواحى التي تختلف فيها النصرانية عن اليهودية كما ألقاها موسى على شعب الله حين كان يعلمهم التوراة فى التيه، أقل بكثير من النواحى التي توافق هذه فيها تلك. لا من حيث المراسيم وطرق العبادات والمعاملات، بل من حيث العقيدة الخالصة. فقد قال موسى مثلا بأنه ابن الله وحيناً قال إنه الله. ذلك فى حين أن الصبغة الاشتراكية التى اصطبغت بها النصرانية هى بذاتها الصبغة التى اصطبغت بها اليهودية. غير أنك لا تقع على هذا فى أسفار التوراة ولا فى أسفار العهد القديم، بقدر ما تقع عليه جلياً واضحاً فى التلمود وفى التفاسير التى فسرها به الربانيون والبطارقة من العبرانيين.

هذا ما أؤمل أن يكون موضوع بحث أضعه فى مستقبل الأيام. وعندى أن هذه المقارنات من أخص ما يجب أن يكب عليه الباحثون فى هذا العصر، تحقيقاً للاتجاه الحديث فى العلم والمباحث التاريخية.

فاذا رجعنا الى الموضوع الذى أردنا أن نضلع به فى هذا الموطن، وأردنا أن نمضى فى مقارنات نقتطعها من الآثار القديمة، كان لا مندوحة لنا عن الرجوع

إلى القصص التى روتها التواريخ المعروفة أو التى تنوقلت باللقاح عن الأمم السابقة ، لنثبت أن لهذه القصة أصلا ميثولوجياً عند الأمم القديمة ، أخذ يتنقل فى أرحام الدهور ، و تنتحله أمة بعد أخرى ، حتى بلغ فى القرن السادس بعد الميلاد مبلغه الاقصى ، فصب فى القالب الذى نقع عليه فى القرآن .

على أننا نريد أن ننبه هنا على أن بحثنا هذا ليس له بالدين صلة ، وليس له بالعقائد نسب . فهو بحث خالص لوجه الحقيقة ، لأهل الدين أن يؤولوا منه ما يشاءون ، ولا حرار الفكر أن يستنتجوا منه ما يستنتجون . و ليس المقام مقام تقرير ولا هو مقام اثبات أو نفى . بل هو مقام رواية للقصص المختلفة التى قصت فى الطوفان ، و مقارنة بعضها ببعض تلميحاً لا توضيحاً ، وسياقاً لا قياساً ، وللحقيقة لا للدعاية . لهذا نمضى في هذه المقارنات مستهدين بهذه النزعة و لنا فى نهايتها كلمه لعلها تكون فاصلة صريحة ، لا نحتاج بعدها الى استرسال فى شرح ، أو اطناب فى بيان .

***

فى كل التقاليد الميثولوجية ، قديمة وحديثة ، تقع على قصص فى الطوفان تختلف فى التفاصيل والاوضاع ، ولكنها تتفق فى الجوهر و الغاية .

فقد أفنى الطوفان أمة خيالية قيل أنها عمرت أرض الاغريق القديمة فى العصر البرونزي ، و كانت أمة اتصفت بكثير من الخشونة والقسوة . فكان السبب فى تحطيمها وافنائها مشابها للسبب الذي أفنيت من أجل عاد وثمود . والفرق أن الاولين أهلكوا بالمياه الطاغية ، و الأخرين اهلكوا بريح صرصر عاتية . و روى أن « زوس » الاله اليونانى المعروف قال « لهرمز » :

« سوف أرسل على الارض مطراً عظيماً لم يصب الأرض مثله منذ أن استقر الكون على صورته هذه ، و ان النوع البشرى برمته سوف يفنى من جراء ذلك . فان ظلمهم يتعبنى و يمضنى »

وكان الآلهان زوس وهرمز قد تنكرا فى صورة بشرية . فاضافهما رجل عجوز يقال له « ديوكاليون » وامرأته « بيرا » . وأحسنا وفادتهما وقاما على خدمتهما والعناية بأمرهما . فلما أتى الطوفان نجيا جزاء احسانهما للآلهين الكبيرين . وكانت نجاتهما بأن نصح « زوس » للعجوز بان يبني فلكا من خشب البلوط ويخزن فيه من المواد الغذائية قدراً كافياً . فلما تم بناء الفلك ، دخل الزوجان فيه وأغلقا وراءهما الباب . وهنا فتح « زوس » ينابيع الغور الأبعد وآبار الينابيع السماوية ، وأخذت السماء تمطر وظلت فى تهطالها أربعين يوما وأربعين ليلة كاملة من غير انقطاع . وبذلك فنى القبيل البرونزي ؛ ولم يسلم منه حتى الذين لجؤوا الى قمم التلال العالية . واستوى الفلك على جبل « بارناسوس » - Parnassus - ولما غيض الماء خرج الزوجان من الفلك وهبطا من فوق الجبل ولجأ الى كهف اتخذاه سكناً لهما . (١)

أما فى الميثولوجيا الهندية فتجد عقيدة أن الدنيا لابد أن يفنيها طوفان مجتاح ينتابها فى نهاية كل دور من الأدوار الكونية . (٢) أما هذه الادوار فاربعة :

الأول : دور الكريتا أو العصر الكامل - Krita

والثانى : دور الترتيا - Treta

والثالث : دور الدوا بارا - Dwapara

والرابع : دور الكالى أو عصر الشقاوة والفساد - Kali

---

(١) راجع كتاب The Muses' Pageant تأليف الأستاذ الكبير هوتشنسون W. M. L. Hatchinson ص ٥ وما بعدها .

(٢) فى هذه العقيدة شبه بفكرة النكبات الجيولوجية التى كان يعتقدها ويؤيدها الى عصر قريب فئة من كبار علماء أوروبا المعدودين ومنهم كوفييه المعروف . وقامت هذه الفكرة على أن الحياة كان ينتابها نكبات تذهب بكل أثر لها على الأرض وان طوفان نوح آخر هذه النكبات . ثم تأخذ الحياة فى التكاثر من بعد ذلك بفعل الخلق المستقل . وذلك ليعللوا تباين الصور الحفرية التى كانوا يرونها منطمرة فى الطبقات الجيولوجية .

ولا جرم أن هذه الادوار تشابه بالتقريب الأدوار المعروفة عند اليونان والامم الصلتية .(١) وكذلك نجد اشارات فى الآداب السنسكريتيه تدل على الاعتقاد في أن العالم قد دمر ، لان النوع البشري كان قد تكاثر فوق الكرة الأرضية الى حد غير مرغوب فيه . فقد ذكر أحد حكماء الهنود أنه عندما بلغ تكاثر الناس حدا مروعا ، وناءت الارض ظلما بما حملت ، اضطرت الى أن تنخفض عن مستواها مائه « يوجانا » ـ **Yojana** ـ ولما شعرت فوق ذلك بألم شديد يقض أطرافها ، بل فقدت حواسها لثقل ذلك الحمل الكبير الذى ارتكز فوقها ، لم تجد من وسيلة فى وسط كارثتها هذه الأن تلجأ الى حماية « نارايانا » ـ **Narayana** ـ آله الآلهة وكبيرهم » (٢)

ooo

كذلك تجد فى الآداب السنسكريتية أن « مانو » ، وهو عندهم الانسان الاول ، قد ذكر بان الآله فى صوره سمكة قد أخبره بان الارض لابد من أن تصفى وتنقى ، فاوحى اليه بان « يبنى سفينة عظيمة قوية الدروع ويجهزها بحبل طويل » . فلما ارتفعت المياه ، قادت السمكة السفينة بواسطة الحبل فى وسط الخضم المتلاطم الامواج ؛ وما زالت بها حتى رست على قمة «هيمافات » التى لا تزال تسمى « نو باندا » ـ **Naubandha** ـ ومعناها المرفأ أو الميناء . وكان « مانو » مصطحبا معه سبعة من « الريشى » ـ **rishi** ـ وهم فقراء الهند وأهل الباطن عندهم من النساك المتعبدين (٣) .

ولا جرم أن هذه الاسطورة الهندية تزودنا بما نستطيع به فهم التصور

---

(١) راجع كتاب الميثولوجيا والأساطير الهندية Indian Myth and Legend ص ١٠٧ وما بعدها .

(٢) راجع كتاب « ـ فانا بارفا » Vana Parva قسم « الماها بهاراتا » Mahabharata Section ترجمة « روى » Roy ـ ص ٤٢٥

(٣) راجع كتاب الميثولوجيا والأساطير الهندية ص ١٤١ .

السوميرانى القديم فى حقيقة «إيا» - Ea - التي مر بنا ذكرها من قبل في سياق الاسطورة البابلية . فان الاسطورة الهندية تنص على أن هذه السمكة عند ما كانت صغيرة لجأت الى «مانو» خشية أن يبتلعها السمك الكبير وبذهب بها ، مهيبة به أن يحميها وان يظللها بعنايته . فرفعها «مانو» الحكيم من النهر ووضعها فى جرة . غير أنها أخذت تكبر فى الحجم ؛ فنقلها الى وعاء كبير ، ومن ثم الى نهر «الكنج» (١) ثم شكت السمكة «لمانو» مع مضى الزمان من أن النهر قدضاق بها وأنه لا يسعها، فاخرجها منه الى المحيط الاوسع . وجزاء هذه الخدمات تجلى الآله فى صورة سمكة وأخبر «مانو» بما سوف ينتاب الارض من طوفان مجتاح مدمر ، ثم اقتاد السفينة فى وسط الكارثة حتى استقرت على رأس الجبل.

فاذا كان لهذه الاسطورة الهندية أصلا بابلياً كما هو مرجح ، جاز لنا أن نقضى بان روح نهر الفرات التى كانت تدعى فى أساطير بابل - «روح الارض» - و - «روح المكان» - كانت تتصور فى هيأة سمكة ؛ وان نماءها فى النهر يعلل فيضانه اذ يضيق بها على سعته . على أن التصور غير قاصر على أهل بابل والهند ؛ ففى كثير من القصص الميثولوجى تقع على تعليلات لحدوث الفيضانات العظيمة بان «وحشا عظيما لا بد من أن يكون قد لجأ الى البحر أو البحيرة أو النهر فعلا ماؤه وفاضت جوانبه» . (٢)

***

أما في الاقاصيص الصلتية (الايرلاندية) فان الطوفان ينسب الى المسماة «سيشاير» - Cessair - حفيدة نوح ؛ لما منعت عن أن تختص بمكان فى الفلك فهربت الى حدود الدنيا الغربية كما اشار عليها صنمها الذي كانت تعبده . (٣)

---

(١) النهر المقدس عند الهنود ولعل تقديسهم له آت من هذه الخرافة

(٢) راجع «ماكنزى» ص ٢٧ و ٢٨ Myths of Babylonia

(٣) راجع كتاب لنستر Book of Leinster وتاريخ أيرلاندا تأليف كيتنج Keating ص ١٥٠

وكان أسطولها مكونا من ثلاث سفن ، غرق منها اثنتان قبل أن تصل شواطىء ايرلاندا . أما الذين نجوا فكانوا فضلا عن « سيشاير » أباها «بيث» - Bith - ورجلين آخرين ؛ وفنتان - Fintan - ولادرو - Ladu - وخمسين امرأة . وكلهن قضين نحبهن على التلال ما عدا « فنتان » فقدر لها البقاء الى العصر الذى شهد أهله قدوم « بارثولون » - Partholon - الجبار من أرض اغريقية .

°°°

كذلك تقع عند المصريين على أسطورة فى الطوفان سجلتها رواياتهم الميثولوجية . فان « رع » آله الشمس لما كبروهرم عندما كان ملكا مسلطاً فوق الارض : بدأ الناس يلوكونه بألسنتهم. فدعا الآلهة الى جمهرة وقال لهم : «لست براغب فى أن اقتلهم (أى رعيته) قبل ان اعرف ما سوف تقولون فيهم » . أما « نو » أبوه ، وكان آله المياه السرمدية القديمة ، فقد اشار بافناء النوع البشرى جملة .

فقال « رع - » اجيبوا دعوتى والجئوا إلى رؤوس التلال ، اذ كانت قلوبهم مفعومة بالخوف من جراء مارموا به « رع » من بذىء الكلام » .

«فذهبت الآلهة « هاتور — سخث » . عين رع — فى إثرهم واخذت تقتل النوع البشرى فوق التلال التى لجأ أفراده اليها . غير أن « رع » ارادبعد ذلك أن يحمى البقية الباقية من البشر فأمر بقربان عظيم يقدم للآلهة ، مكون من خمير القمح ممزوجاً ببعض الاعشاب و دماء بشرية . وصب هذا الشراب اثناء الليل فوق الارض — « فلما اصبح الصباح وأتت الآلهة لتباشر مهمتها ، وجدت أن الحقول تفيض بهذا الشراب الشهى فشربت وطربت ورقصت قلوبهم فرحاً ، وذهب الآلهة بعد ان انتشوا « سكارى » ولم يعيروا النوع البشرى اهتماماً . »(١)

---

(١) راجع كتاب ديانة المصريين القدماء . تأليف ويدمان ص ٥٨ وما بعدها

A. Wiedmann. Religion of the Ancient Egyptians ..

ولا خفاء أن الاسطورة المصرية تشير الى فيضان النيل السنوى ، والى « الدماء البشرية » في « خيرة القمح » وهى عبارة عن دماء آله القمح المقتول ، أو الى من يمثله من أهل الأرض .

* * *

اما الطوفان المكسيكي فاحدثه « شمس الماء » الذى قذف فجاءة بكل الرطوبات التى كان قد استمدها من الأرض ، وارسلها فى صورة بخار فافنى بذلك كل الاحياء وكل صورة الحياة

* * *

وتعتقد قبائل « النهوا » **Nahua** - المعروفة باسطورة طوفانية تشابه من وجوه كثيرة الاسطورة البابلية التى رواها « أوت نابشتيم » . وعندهم أن الآله « تتلا كاهوان » **Titlacahuan** قد أوعز الى رجل يدعى « ناتا » **Nata** بان يصنع فلكا صغيراً بان يجوف جذع شجرة ، لينجو به من طوفان سوف يعم الأرض ويهلك من عليها . وبذلك نجا هو وزوجه « نينا » **Nena** — وقدما سمكة قربانا أو هما فى الفلك فاستثارا بذلك غضب كبير الآلهة عندما علم بانهما نجيا من الطوفان ، كما غضب « بعل » البابلى عندما علم بان « أوت نابشتيم » قد نجا من غضبه و بقى بعد الكارثة الكبرى .

* * *

وفى البرازيل ارسل كبير الآلهة « مونان » **Monan** نارا عظيمة لتحرق الدنيا وسكانها الاشقياء وتدمرهم تدميرا . فبادر ساحر من كبار السحرة الى استنزال امطار غزيرة ليطفىء النار ؛ وظلت الامطار فى تهطالها حتى اصاب الارض طوفان عظيم .

* * *

ويعتقد هنود كاليفورنيا فى اسطورة طوفانيه حلت بالعالم لتفنى الشعب

الاول، وكان ظالماً قاسيا فاسدا . ويعتقدهنود الشمال الغربي بأنهم سلالة اسرة نجت من طوفان عام . وكذلك تقع بين سكان « الدنيا الجديدة » الاصليين على صور مختلفة من الاعتقاد في الطوفان وحلول كارثته بالأرض.

وكذلك يتفق معتقد الامريكين الاصليين فى أن المخلوق الاول لم يستطع العيش على الأرض مع معتقد البابليين . وهنالك قصة عن « بريسوس » **Berossus** سياقها أن الخلق الاول لم يفلح لان الحيوانات لم تستطع ان تتحمل الضوء فهلكوا وفنوا . (١) وهنا تقع على الجرثومة الاولى التى فرخت من بعد فكرة « العصور الدنيوية » أو « الادوار الكونية » والتى بلغت مبالغها القصوى بين الهنود واليونان والصلتيين (الايرلانديين) وظهرت جلية فى صورهم الميثولوجيه .

* * *

فاذا عدنا الى قصة الطوفان كما رويت فى سفر التكوين رأينا أنها تشكل مادة واسعة للمقارنة بالقصة البابليه حيث تتفق القصتان فى اسسهما الجوهرية كما تختلفان كثيرا فى التفاصيل » . (٢)

إن الثقافة البابلية لم يقتصر مدها على الغرب حيث غزت اطراف فلسطين، ومن ثم الى بلاد اليونان فى خلال العصر الفينيق ، بل امتدت ايضاً الى الشرق من « عيلام » الى المرتفعات الأيرانية ، ومن ثم الى الهند . ولقد اشار كثير من ثقاة الباحثين الى المماثلة التامة بين الميثولوجيا السوميرانية

---

(١) راجع كتاب « ديانة بابل وأشور » The Relegion of Babylonia and Assyria للاستاذ بنشز Pinches ص ٤٢

(٢) راجع كتاب « ديانة بابل » Babylonian Religion تأليف كنج King وكتب الأستاذ « بنشز » العهد القديم فى ضوء المدونات التاريخية وأساطير أشور وبابل The Old Testament in the Light of Historical Records and Legends of Assyria and Balylonia.

والميثولوجيا الهندية.(١) وفي العصر الذى اخذت تؤلف فيه الاغنيات الآرية التى تغنى بها غزاة الهند من الآريين، كان الآله «فارونا» Varuna آله السماء وهو يشابه عند الهنود «إيا ومترا» عند البابليين، قد اخذت شمس مجده فى الأفول — وكانت هنالك مؤثرات ثقافية اخرى تعمل فى الخفاء ومن وراء حجاب. فبينما كانت بعض القبائل الآرية تدفن موتاها فى بيوت «فارونا» الحجرية، كانت قبائل اخرى تتصرف فى موتاها حسب شريعة «أغنى» Agni آله النار بعد ان اتخذوه آلهاً يعبدونه ويتقربون اليه زلفى. وحوالى نهاية العصر الفيدي (٢) وقعت غزوات جديدة فتح بها جوف الهند، فنقل الغزاة معهم معتقدات جديدة، منها تقمص الارواح وتناسخها وادوار الكون الزمانية. وكذلك أخذ نجم الآلهات فى الصعود، كما اخذ نجم آلهة «الفيدا» فى الأفول مرتدين الى منازل ثانوية تحت رئاسة براهما وفشنو وسيفا. ولا شك فى ان هؤلاء الغزاة كانوا قد تأثروا بالمعتقدات البابلية وانتحلوا الكثير منها قبل ان يهبطوا بلاد الهند. فمذاهبهم فى ادوار الكون الزمانية مثلا والتى سموها «اليوغا» Yoga تذكرنا على الاخص بالفكرات الفراتية(٣) فى الزمان والمكان. حتى أن الثقة الثبت مستر «روبرت براون» الصغير قد أظهر أن المذاهب المعروفة فى «يوم براهما» فى الهند تشابه مشابهة تامه نظاماً فلكيا ظل ثابتاً فى أرض «بابل»، تلك الأرض التى كانت مغرساً لنظرية الادوار الكونية على الارجح (٤)

---

(١) راجع كتاب Myths of Balylonia and Assyria تأليف الأستاذ مكنزى Mackenzie

(٢) نسبة الى الفيدا Veda من كتب الهند المقدسة

(٣) نسبة الى نهر الفرات والأراضى الواقعة حوله.

(٤) راجع كتاب Primitive constellations تأليف «روبرت براون» جزء أول ص ٣٣٤ و ٣٣٥

على أن الشعوب الاجنبية التى تأثرت باساليب الفكر البابلية ، لم تبق طوال ازمانها فى حالة استعباد عقلى . فان الفكر الانسانى قد تنبه بانتحال المناهب الدينية ، اكثر مما استعبد وخضع وصديتاره . لهذا ترى ان الفكرات المتعلقة باسرار الحياة والموت، قد تطورت تطورات كبيرة ، وعلى الاخص في البقاع التى لم تتمكن فيها سلطة الكهنوت البابلى من حيث المراسم التعبدية والقيود الدينية : فى شل حركة الفكر . وعلى هنا نجد الحال تماماً إذا نحن رجعنا الى التصورات المتباينة المتناقضة التى تنسب عادة الى بطارقة « الفيدا » وصور الميثولوجيا السوميرانية . فان « اوت نابشتيم » ، نوح البابلى ، وغلغامش الشبيه بالآلهة : فى الميثولوجيا البابلية ، يقابلهما فى الميثولوجيا « الفيدية » آله الموتى المسمى « ياما » Yama . والمعتقد ان ياما كان « الرجل الأول » وهو مثل « غلغامش » خرج فى سياحة طويلة مجتازا الجبال والوديان والبحار ليستكشف « الفردوس » وتذكر التراتيل الفيدية أنه مستكشف « السبيل » أو « الطريق » الموصل الى أرض « البتريس Pitris » اى الآباء : وهى الجنة التي يجتازموتى الهنود الذين لم يحرقوا ، الطريق اليهاماشياً على الاقدام. وانك لتجدان الآله « ياما » لم يفقد على طول الازمان صفاته وخصائصه الاصلية . فهو في الاشعار الحماسية والملاحم الهندية الكبيرة ، كما هو فى اسفار « الفيدا » سائح سرمدى على طول الزمان (١)

(١) راجع كتاب الميثولوجيا والاساطير الهندية الفصل الثالث واليك الأمثال

Him who along the mighty heights departed,
Him who searched and spied the path for many,
Son of Vivasoat, gother of the people,
Yanra, the King' with sacrifices worship.

Rigveda, X, 14, 103.

To yama, Mighty King, be gifts and homage paid,
He was the first of men that died, the first to brave.
Death's rapid rushing stream, the first to point the road.
To heaven, and welcome others to that bright abode.

Sir M. Monier William's Translation.

وقد وضعت هذه الترجمة تحت عنوان « حكمة الهند » Indian Wisdom.

و كان « ياما » و أخته « يامى» -Yami- فى أساطير الهند الزوج الاول من بنى الانسان . و هما مماثلان من هذه الناحية للتوأمين السماويين فى بلاد فارس «يما » - Yima - « و يمه » - Yimeh - أما « يما » فيشابه« مترا » أو « مثرا » . أما «فارونا » شقيق«مترا » التوأم فهو فى الحقيقة يمثل آله الموت حاملا بيده الانشوطة أو «الحبالة» (١)

أما« ياما » الهندى الذي كان يدعى « سيد الآباء» - Pitripati- فيأخذ مكان« مترا» فى فردوس«الاسلاف » بجانب « فارونا » . آله السماء و الغور الابعد . و يجلس تحت شجرة يعزف بقيثارة ، و يحتسى شراب « السوما » - Soma - الذى يحبو الخلود . و لما وصل أعقاب « ياما » الى الفردوس تقمصوا صوراً نورانية ،« رقيقةمنزهة عن الألوان »(٢)أما فى الميثولوجيا الفارسية فالظاهر أن « يما » كان يحكم على جماعة من الناس هم من أولاده وأحفاده . لان تقاليد هذه الميثولوجيا تنص على أنه عاش عمرا أطول من عمر آدم . و من أجل أن يخصهم بصفة البقاء بعد أن كانوا قد خصوا بصفة الفناء، يحملهم على أن يأكلوا طعاماً محرماً عليهم ، بعد أن يوكل بهم « الديفاس » - Daevas - أى « الشياطين » Demons : ولكن ماذا كان هذا الطعام المحرم ؟ اذا أردنا أن نبحث فى طبيعة هذا الطعام ، فهل لنا أن نصل بين هذه الاسطورة وأسطورة اخرى تنص على أن« مترا» جعل الناس فانين بان أعطاهم طعاماً من دهن « الاور كوه » - Ur - Koh - وهى البقرة البدائية ، التى تنص الاساطير الآرية التى انتحلتها المذاهب « المثراوية » (٣) على أن من جثتها ، بعد قتلها ، خلق النوع البشرى لأول مرة ؟ (٤)

---

(١) راجع قسم السابها بارفا Sabha Parva فى المهابهاراتا ترجمة روى ص٢٩

(٢) راجع كتاب الميثولوجيا و الأساطير الهندية ص ٣٨ — ٤٢ .

(٣) نسبة الى مثرا .

(٤) راجع كتاب الأستاذ مولتون . Prof .Moulton

و عوقب «يما »لانه تطلع الى الخلود و حاول أن يكون خالدا هو و النوع البشرى ، خاضعا فى ما تطلع اليه الى وحى قوة سفلية ، ولم ينتظر حلول العصر السعيد الذى كان سيظهر فيه « آهورا » – Ahura – . أما الاستاذ «مولتون» فلا يخفى شكه فى أن هذه الرواية ربما متت بصلة الى أصل بابلى .

كذلك تجد أن « يما » كا « وت نابشتيم البابلى ، كان ممن فسروا أسرار الخليقة فقد خصه « آهورا » كبير الآلهة بان يكون حفيظه وعرافه وحارسه على الخليقة. ولم يمض على خلق الخلق ثلاثمائة سنة حتى غصت الارض بما حملت من مخلوقات بشرية وغير بشرية حتي لم تجد المخلوقات لكثرتها مكاناً تأوى اليه . (١)

بعد ذلك أصاب الارض سهم ذهبي ارتشق في أحد جوانبها فشقها و عند ذلك بنى « يما » ملجأ ليلجأ اليه النوع البشرى والحيوانات الداجنة فى خلال شتاء سوف يشتد برده و تعصف رياحه . أما الاستاذ مولتون فوقن بان هذه الصورة الميثولوجية تغرى الباحث كل اغراء بان يعترف بان فيها أثرا واضحاً من أسطورة الطوفان البابلية. وكذلك تقع فى الميثولوجيا الجرمانية على « شتاء مهلك » .فقد تساءل «أو دينى» فى احدي قصائده المعروفة فى إيسلاندا «أى المخلوقات سوف يعيش عندما يخيم الشتاء القارس الطويل على أهل الارض»؟

٥٥٥

الى هنا نكتفي بايراد ما استطعنا الوقوف عليه من مادة للمقارنات بين الروايات التى تناقلتها الشعوب البشرية جيلا بعد جيل .

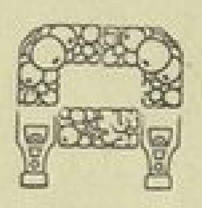
---

(1) Then the earth became abounding,
Full of flocks and full of cattle,
Full of men, of birds, dogs likewise,
Full of fires all bright and blazing,
Nor did men, flocks, herds of cattle,
Longer find them places in it.

عن ترجمة جاكسون

أما ما أردنا أن نصل اليه من بحثنا هنا ، فلا يتعدي استجماع مادة واسعة حول موضوع بعينه . وليس من حقنا أن نصرف القراء عن التفكير فيها برأى نبديه ، ندافع عنه وننفى غيره من الآراء الكثيرة التي تحوم حول هذا الموضوع . وهذه خطة سوف نسلكها فيما سننشر من مثل هذه الابحاث.

أما اهداؤنا هذه الرسالة الى « أحرار الفكر » فلأنهم أكثر الناس قدرة على النظر فى الموضوع نظرة بعيدة عن تعصب الدين ، وافراط اللاأدرية .



العصور

Al-Ausour-A Critical Monthly.

مجلة انتقادية الادب والعلم والسياسة

محررها وصاحب امتيازها

اسماعيل مظهر

شعارها — حرر فكرك من كل التقاليد والأساطير الموروثة حتى لاتجد صعوبة مافى رفض رأى من الآراء، أو مذهب من المذاهب اطمأنت اليه وسكن اليه عقلك، اذا انكشف لك من الحقائق ماينافضه

أغراضها — نشر العلم والمعرفة وتحرير العقل من آثار الماضى التى لاتتفق ونزعة عصر الحاضر

أعدادها — عشرة أعداد فى السنة كل منها فى ١٢٨ صفحة فيكون عدد صفحاتها ١٢٨٠ فى السنة، كل صفحة منها جديرة باعجابك وتأملك الطويل

اشتراكها — ٦٠ قرشا فى السنة، ٣٠ قرشا لنصف سنة، ١٥ قرشا لربع سنة وفى الخارج ١٥ شلنا انجليزيا أو أربعة ريالات أمريكية أو مايوازى هذه القيمة بالعملة المصرية فى بقية الجهات التى ترسل اليها. وللطلبة والمدرسين امتياز خاص اذا خابروا الادارة رأسا

ادارتها — دار العصور بالظاهر بمصر

فبادر بالاشتراك للمدة التى ترغب فيها يصلك فى اول كل شهر عددا منها يمتاز بدقة مباحثة ويأخذ بيدك الى عالم جديد من الفكر الحديث

مطبوعات دار العصور

م

١٥ تاريخ الفكر العربي

١٥ معضلات المدنية الحديثة

١٥ أصل الأنواع : خمسة أجزاء (ثمن الجزء)

٦ الضحية وروايات وأبحاث أخرى عن طاغور

٧ العقائد — بحث في مقارنة الأديان

٥ نزعة الفكر الاوروبي — عن مرتز

٥ نهضة فرنسا العلمية — عن مرتز

٣ الاشتراكية تعوق ارتقاء النوع الانساني

٥ نشيد النيل : شعر وموسيقى — بغلاف فني ملون

١٥ الطبيب والمعمل — لأبي شادي

٥ بنت الصحراء (أوبرا)

٥ الآلهة (أو برا)

٥ اخناتون (او برا)

١٠ محاورات رينان الفلسفية

١٠ خزانة الادب الكبرى للبغدادي : ثمانية أجزاء (ثمن الجزء)

٧ التصوف الاسلامي العربي — بحث تاريخي

٢٥ منتخبات الترجمة (للمدارس الثانوية) أربعة اجزاء





THE CLINICIAN & THE LABORATORY

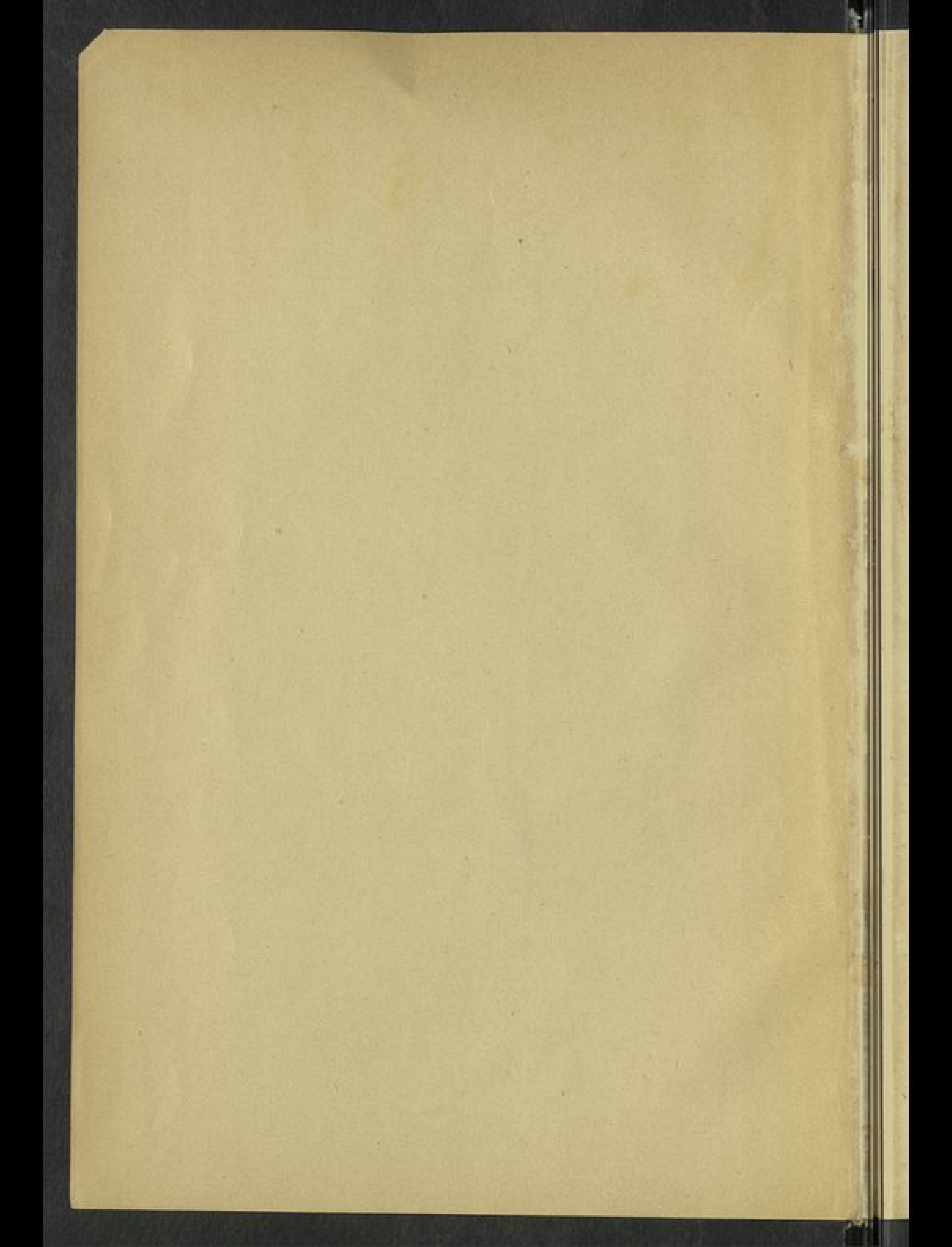
تأليف

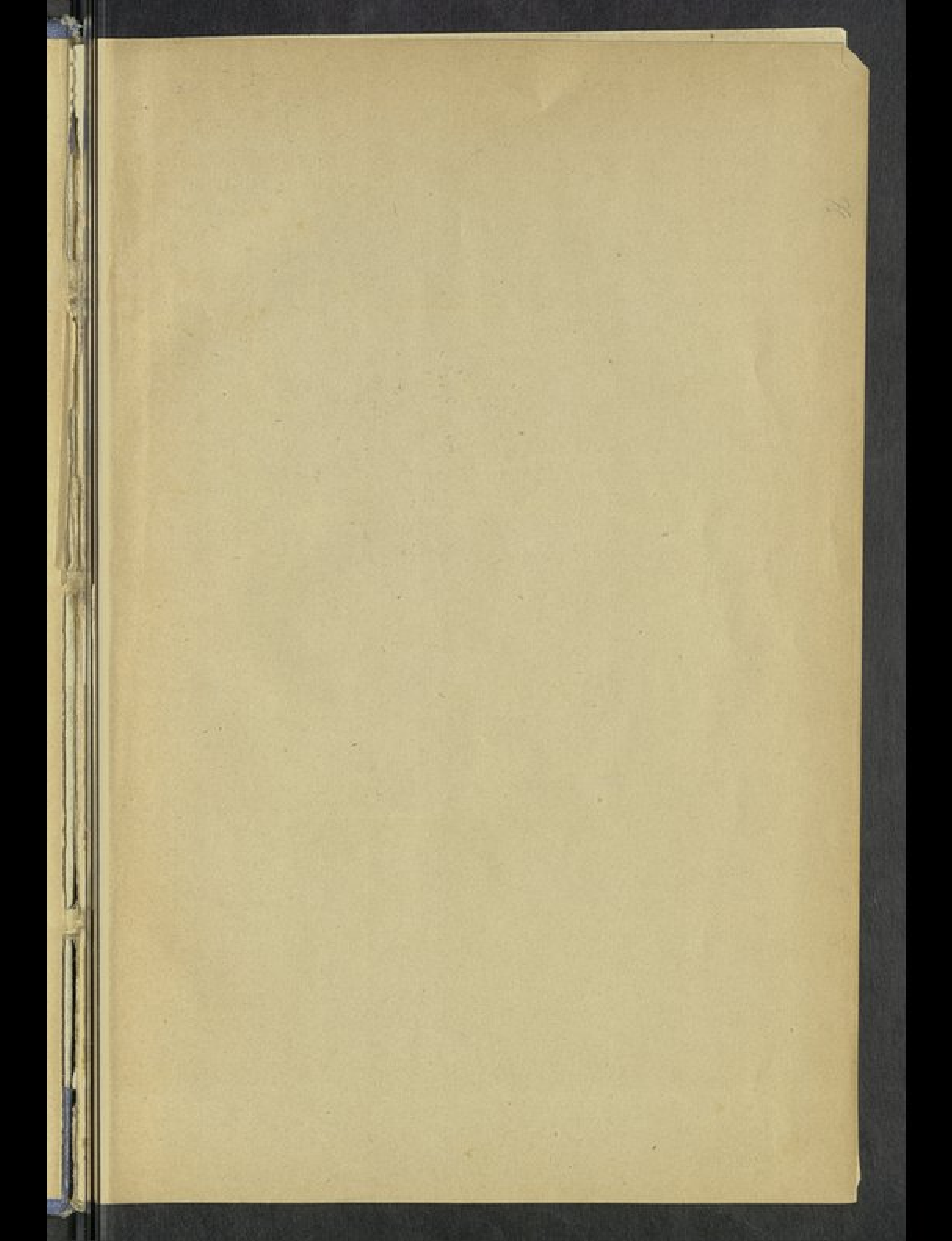
الدكتور أحمد زكى أبوشادى

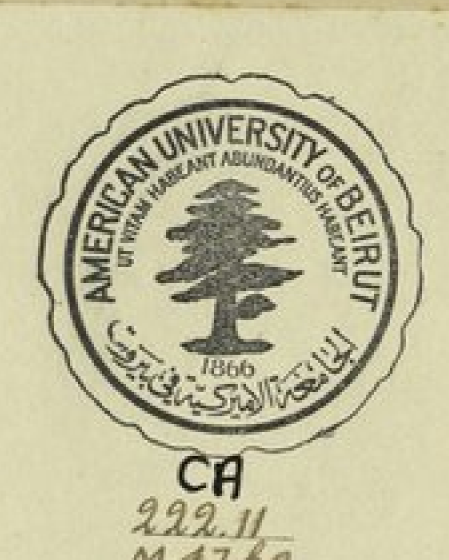
البكتريولوجى بمعامل الصحة الفنية بالقاهرة

يقع هذا التأليف القيم الجامع فى نحو ٩٠٠ صفحة ، منها زهاء مائة صفحة خاصة بملحقه التصويرى المشتمل على ٣٦٠ شكلا مطبوعة أجمل طبع على ورق صقيل لامع وقد تضمن متن الكتاب صفوة خبرة المؤلف فى أربعة عشر عاماً قضاها فى التخصص العلمى ، فضلا عن زبدة مطالعاته الكثيرة ومختار تلخيصاته وترجمته . والى جانب هذا يتضمن الكتاب عدداً من الفصول العلمية الثمينة لطائفة من أطباء معامل مصلحة الصحة البارزين ، وفى مقدمتهم جناب مدير المعامل وحضرة وكيلها ، والدكتور أنيس أنسى بك رئيس القسم الباثولوجى فيها ، والدكتور على بك يحيى رئيس قسم الفكسين والدكتور لويس بك عوض رئيس قسم التطعيم ، وغيرهم . والكتاب مصدر بمقدمة للاستاذ الدكتور محمد خليل بك عبد الخالق (رئيس قسم الابحاث بمعامل الصحة وأستاذ علم الطفيليات بكلية الطب) تعريفاً بقدر الكتاب و بمباحثه المفيدة التى تمتاز الى جانب الدقة العلمية بسهولة لغتها الأدبية المتينة .

وقد عنيت (دار العصور للطبع والنشر) باصداره خدمة للأدب العلمى ، ولأنه أول كتاب شامل من نوعه فى اللغة العربية ورأت من أجل ذلك أن تقتصر على بيعه بثمن نفقاته فحددت ثمن النسخة خمسة عشر قرشا فقط (تضاف اليها أجرة البريد) حتى يعم انتشاره بين الأطباء الكلينيكيين وأطباء المراكز والمستشفيات فى العالم العربى على أن الكتاب ذو فائدة جزيلة لمحبى الاطلاع والعرفان العلمى وان لم يكونوا من زمرة الأطباء ، وخصوصاً لاساتذة المدارس ، فهو جدير إذن بأن لا تخلو منه مكتبة عصرية






AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
الجامعة الاميركية في بيروت

